

الصَبَا وَالدُّبُور

السنين

لا تُكثر على إنسان تأسفا
وما من شخص تحبه يحبك
وأغضض كرهه من خانك
وأترك الأيام تعطيك فعل
ولا تأمن من أعطيته الأمان
ولعل الزمان لك يصفنا
ولا تأنس من يخونك فالطباع
ولا رفيق ، فالإنسان في هذا الزمان
الخيانة مرّة ومن خانك مرّة
وليس كل من يبتسم لك
جلست تحكي والشمس تقرأ غروبها اليومي ، كان فؤاد شاب من زينة شباب
الحي أخلاق وهيبة ، أما عن علمه ماشغف به مذُّ حادثته وولع بمطالعة الكتب
فكان دودة كتب وكان يحب إصلاح الكهرباء فكان كثيرا ماتراه في أماكنها فلا
يألو جهدا في الأمر ، حملته تفوقه إلى بلاد أوروبا ليستقر بمدينة من مدن هولندا
الجميلة ، أه مشوار إنتهى بالنار وأسأل الدموع ، كان برقع من شف القريب
إلى وجدان والدتي تتحرك مشاعرها كلما رأته ، ثري القلب ، ألف اللسان حي
الأمل حيُّ الأمل حُلُو الكلام .

تكشفت سريرته بكل مواطن الجمال ، خلاف إخوته ، الأكثر جمالية وأدب لها

أخذ الكثير من الخصال في غير نرق الشباب ، وبينما أمي ترشف فنجان قهوة وتفصل بين القول والآخر طُرق الباب طرْقًا كاد يقتلعه من الجدار ، تزغبت أهدابها ، وإرتفعت نحوى الصوت العنيف وهو ينادي على الطوى ، سارعت عيوننا بالإتجاه المعاكس :

إفتحوا الباب ؟

توقفت أنفاسنا ، ونما الخوف بل تدهورت حالتنا في غمضة عين ، أما أمي فلقد تشنَّج جلدُها وصرخت ملامحها تعجبا وحيرة ، وقفزت من مكانها وقد لدغتها الشكوك وتركت لها حركة تُكابِر بها فإسترقت منها المشهد وأسرعت أمامها وفتحت الباب ، وإذا بي أمام حلقة واسعة من الرجال هم الضراوة الغبراء مُحيًا وجسد ، فتسمرت مكاني وصرخت أمي من خلفي وقد ذهلهما الموقف : من أنتم ؟ ، وي ما هذا لماذا كلُّ هذا ؟

جلسنا جميعنا حول الكرمة التي فتقت براعم الأوراق وظهرت بها ، فتفجرت أوراق خضراء ضعيفة تُداعب وتُتحف الأغصان .
جلس أمامنا سيّد إستكملت به الملامح وكشفت عن جسد مكتمل عليه علامات الرفاهية والمكانة الحسنة تصرخ من جسده ، أقوى رجل من بين من تجمهروا بالدار .

السيد : سيدتي هل عبد الرحمان فؤاد أخوك ؟

تدرج الألوان على وجه أمي من أصفر إلى أحمر بعد السؤال ، وردت بعدما قرأ دماغها الكلام : نعم ، هو أخي ؟

السيد : حسنا ثم وهو يخرج ورقة بيضاء مستطيلة الشكل كتب عليها عن طريق الإعلام الآلي ، هو الآن في كندة وعنوانه " شارع مارلين بيولوك فيلا 02 " ، من

بين المكتشفين لمنظار الليزر لتحديد المسافات ، كما كان له السبق في بعث الأجهزة الرقمية لتحويل الأصوات ، باختصار هو المكتشف لشفير النظام الرقمي لكشف عمليات التجسس المختلفة .

وعلى الرغم من الجمالية التي يتضمنها الكلام وأحاسيس لأناة أقوى من بعضها وعلى الرغم من تشخيصه الذي قادني للإدعاء تارة وإلى التصديق تارة أخرى إلا أنه جعلني أرسم صورة محسوسة تزايدت تأثيراً وقوة مع لحظات كلماته الأم (وقد عادت الروح إلى جسدها ، وبعد عنها التكدير الذي تسببت فيه الشرطة والجمع من الرجال):

ما أعلمه أنه باحث وله مكانه ، أما نوع عمله فلم أتعرف عنه بالتدقيق ، ولا تزال الأم تنتقي الكلمات المعبرة وتبحث عن كلام تقوله .

عل أمي الأكثر إرتباكاً خصوصاً بعد رؤيتها لرجال الشرطة المنتشرين في البهو وآخرين مدنيين ، فغشى نفسها نسيج الدهشة وشروذ ضاق به حالها .

أتراهم جاؤوا ليقبضوا عليه ؟ أم أن هناك مشكلة واقعة على إعتبار نظراتها ؟ وإلا فما سر هذه اللمة ؟

ينظرها رئيس الجلسة المكلفة بالإستجواب وقد قرأ إسرارها في عيونها ، فقطع عليها وابل الأسئلة والجفاء :

لا ، لا تذهبي بعيداً ، سأقول لك سبب قدومنا ، السبب عملي .

هنا ترفع أمي عيناها إلى السماء وهي تفتح في صفاء يدها البيضاء .

" ربي أدخلني مدخل صدق ، وأخرجني مخرج صدق ، وإجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً "

كانت أمي تتعقب ألفاظها بتضرع لله جاهرة بذلك ، هنا يتغير مجرى الحال و

إرتخت أكتاف جدتي وتثبت فخطها على البلاط ، فأسرع باسم وعائشة إليها
وحملاها إلى فراشها ، لكن السيد "رؤوم" طلب من أمي البقاء ليكملا ما بدأى
على كل حال أسف ، إلا أنّ حقوق الأمة والواجب الوطني لا يقبل المجاملة
ولا ينقاد لأحد ، لذا أريد أن أقول لك أن سبب قدومنا إليكم واضح وجامع
هو العنوان الذي وجد فيه " عبد الرحمان فؤاد " لأننا إتصلنا به على العنوان الذي
لدينا لكن للأسف لا وجود له هناك ، وما زاد عبث بنا حتى السفارة هناك بكندا
لا تعلم له مكان ، يتوقف السيد "رؤوم" كما قال لأمي أنه يدعى وتوقفت معه
همسات أشفار أمي وتجددت بنظرات غريبة وتظهر تساؤلاتنا إلى النور .
أمي : حقكم ، تريدون مكان تواجدته وبحكم صلته بنا قدرّ القدر خطواتكم ، قاطعها
السيد رؤوم : جاءت دساتير حديثة توجب دخول من تكلفت الدولة بتعليمهم في
الخارج منذ سنوات السبعينات والتي ضمنت تنقلهم ونفقات تعليمهم في الخارج و
هذا بعد تخرجهم بالطبع ، ولقد وفرت لهم الأمان والراحة لأداء دوره العلمي في
أمتهم .

علّ مستوى أمي العلمي لن يكن ليمسك عنها تساؤلاتها ولا يستوفي تفصيلها
للحقائق فكانت ترفع إلينا عقبات فهمها بنظرات جلية وخروجًا عن حدود المؤلف
ودون أن أتزحزح من مكاني قلت :

خالي لم يعد مذ وفات جدتي وفات والدي لم يحضرها ، نظر الجميع نحوي حتى
أمي أما السيد رؤوم فقد ركز نظره بي ، لقد أدرك ما قلته فحملت أمي عني
الكلام قاطعة نبض عرق عن أنفاسًا تتردد :

نعم لقد كانت آخره مرة رأيناه فيها في جنازة والدي .

السيد رؤوم : منذ متى ؟

تنتهد أمي وهي تتذكر يوماً حزيناً ألمَّ بالعائلة كان ذلك منذ حوالي 25 سنة
السيد رؤوم (وقد ظهرت عليه ملامح التأسف والغرابة) : سنوات قليلة بعد
مغادرته البلاد ؟

أمي : نعم لقد سافر في سنة 1980 عندما سافر (وهي تلوح بيدها) بعدما إستفاد
من المنحة .

في هذا الحين إنضم إلى الجماعة شرطي أظهر فراسة ، صاحب جسد ضخم
كساه بزة الشرطي الزرقاء وقال :
العنوان الجديد ماهو ؟ .

ينظر السيد "رؤوم" إلى ساعة يده : نعم ، نعم بكمال عقلي وخلقى .

أمي : تريد معرف مكانه الحالي ، لا يزال بكندا .

السيد رؤوم : لا تقولي أنك لا تعلمي مكانه ؟

أمي : لقد أرسلت إليه رسالة آخر مرة ، كان ذلك يوم قيامي بإجراء عملية
جراحية لعيني اليمنى ، هاتفته لكنه رفض المجيء محتجاً بظروف عملية
إلزامية ، ذاك الزمن كنا نحيا ظروف قاسية ، في هذا الحين يبدي الشرطي
تضمرا فيقول بلهجة محتجة و بلا لف ولا دوران :

بحق الله عليك هل تعرفي مكان تواجده الحالي .

أمي : في الحقيقة هو عندي متممة ، حسناً سأتيك به حالا .

ولأن صدق الحديث كتاب الله مباشرة بعد مغادرة المخبرين لبيتنا تريد تثبيت
السكينة وإبعاد الرعب الذي سكن جسدها فكلمة الله أكبر تثير في نفوسنا
الإنفعال وتدمجنا كلياً في جو الخشوع ، فأعر سمعك لصوت الحق أصدق نداء

.....

.....

.....

تتوالى الأيام وتظهر تباشير فصل صيف حار تلفح بأشعتها الأجساد ، هواء جاف نسائمه أثبتت إنتمائها إلى فصل الصيف ، وتراصت النجوم في سماء صافية وهاهو البدر يشع بنور تمالك الوجدان ، في هذه الليلة سهرت العائلة على مصيبة موت جدتي وعلى الرغم من أن علامات الهزول الجسدي والفتور اللذان أوردا الخبر مسبقًا ، غلا أن هذا اليوم أفرد لنفسه حالة حزن خاصة ، ففي لحظاتها الأخيرة أخذت أمي تحركها في خفة وبإنسجام ثابت وتروح على وجهها بكفها علها تنتعش ، وتذهب قطرات العرق المنتشرة هنا وهناك على جبينها وخدودها إلا أن نسمات الموت علت وجهها واردتها جسدا بلا روح في لحظات ، هناك فعلت الدهشة فعلتها بالوجوه ، وتغير وجه أمي الذي فاق بها وجلها العقد السادس من عمرها الحالي ، وعلّ ما جعل عمرها الجسدي يفوق عمرها الفكري هو معاناتها في تربيتنا والإهتمام بجدتي وكذا تنوير الطريق أمامنا لتتوضح لكل منا وجهته في ظل تعاليم تقية نقية خالية من المداهنة ، وعلى الرغم مما تريد مداراته من معانات فقد أظهرت عيناها السودوتان الذابلتان صراخًا أملاً وحياءً في ملاقات أفاق جديدة شموخ أنف أمي والదال على أنفتها وأوردت خدودها حمورة وتوردت وجنتيها وأظهرت من السمورة ما جمّل ملامحها .

جلست "العلجة" ممددة الرجلين في كامل قوتها لولا آثار جرح ضرب رجليها هذا زمن وهي طفلة لم تتعدى الثانية عشر عن ضربة بقضيب صدرت من جندي فرنسي متوهما فيها ، أثر إحتفظت به قدم أمي اليمنى حتى اليوم وعرجت خطاها تنظر إلى ساعة الحائط التي تشير عقاربها إلى الساعة العاشرة ليلاً يطرق الباب طرقًا قويا مستعجلا ، يهب باسم عن تخته منتعلا أقرب نعل أمامه متفاديا طاوله الشاي التي تتوسط الجلسة ، وإنبعث صوت رجالي خلف الباب لا ترفع عن

وجوهنا الشك في أنه غريب عن البيت أو عابر سبيل يطلب حاجة وفي لحظات
إنتظار يعلو صوت باسم : من الطارق ؟

فيسمع صوت الوافد بنبرات حثيثة وبنفس مرهقة مجهدة ، وهيت وجوه الجميع
متجهين صوب الصوت وإذا به الصوت الغير منتظر وصول خالي "فؤاد" من
ديار الغربية كسح هواء هادئ صور وجوهنا ونال منا الحلم مراده حتى علا
صوت خالي وهو يضحك ضحكة عريضة :

لقد وصلت من حوالي ساعتين ، وكان لديا مشوار يجب القيام به وبعدها إلتحقت
بكم ، ولكنني ضللت الطريق ولم أهتدي إليكم إلا بعدما جلبني أحد الشبان إلى
هنا ، كلام فؤاد لطيف ، لقد إمتلأ جسده وأظهر فاعلية وقوة في الكلام وبان عليه
رغد العيش ونسجت عضلاته وظهرت عظمتة في سواعد ممتلأة ، وشعَّ وجهه
نور نشط يلهب مصفي لنظراته ، ونظرات بشرته أخلطته ببني بلاد الضباب
لفيناه وتوسطنا ولم نتكلم بل تركناه يتكلم فشغفنا بالجديد الوافد جدد نفوسنا
وأذهب عنا النعاس ، حتى تقبلنا طول حديثه ونحن محكمين بمصدر الخبر .
فؤاد (وقد نزع سترته وبقي بقميص أبيض ناصع):

لقد حملت إليكم كل ما تستطيع يدي حمله (وهو يستطلع ما حوله) ولكن سرعان
ما يغرق في ضحكة عميقة حتى غارت عيناه عن الرؤيا وساحت منها دموع
هذا وأمي لا تزال تلتصق بجنبه الأيسر وتوجهت إليه منتبحة متألمة لرقيق مولدها
وقد أدركت سر ضحكته فأجساد الأولاد من طول وضخامة لا تلائم بعض
الملابس التي أحضرها الخال .

إقترب الخال من عائشة وباسم اللذان كانا يجلسان إلى جنبه وضمهما إليه فجثا
تحت صدره أحد بيمناه والآخر على يساره :

لا عليكما سأعوضكما بالمال ، يدل الخال يده اليمنى في جيبه يريد إخراج المال
للزاهرين المضيئين فيرد عليه باسم بسرعة : وهل تريد منا أخذ مالك؟، لا أبدًا
تكفينا رؤيتك فأنت البركة ..

فؤاد : لا يزال فكري يحمل صورتكما وأنتما تلهوان بساحة البيت وأمكما تنهيكما
عن الطيش والعبث .

.....

مع إنبلاج صبح اليوم التالي وبعد ليل نشر مناخًا رطبًا على الكون وغيوم حتى
أخر إنكشاف صبحه وصدّ معالم الأشياء وغير أطرها فأعاد بنوره مشاعر القلوب
وتمنت النفس شعلة من ضياء الشمس ، ليرتدي المحيط ثوب الجلالة وصفاء
الشمس وعطائها مرهونة عند السواد الأعظم بإشراقات جذابة من شمس دافئة .
يظهر الخال فؤاد يحث قدماه على السير مكبلا بقيود نعاس قوي مرهق الجفون
متجهًا نحو الحمام ، واضعًا المنشفة على كتفيه الأيمن يتلفت ذات اليمين بعدما
سمع صوت الدجاج فيجد الخم غير بعيد يتبسم ويكمل السير .

"العلجة" في المطبخ تعد فطور الصباح مندمجة هادئة في عملها حيث ظهرت
في ركن من المطبخ ، العلجة أمي وفؤاد خالي يتشبهان إلى حد بعيد غير أن أمي
ضعيفة الجسد وخالي مكتمل البنيان الجسدي .

يخرج من الحمام وهو ينشف قطرات الماء عن مرفقيه الواحد تلو الآخر ينظر
فيما حوله يستظهر مكان المطبخ ثم يبتسم : أه أسمع الصوت من هنا ، إنها العلجة
بلا شك يتجه فؤاد نحو مصدر الصوت مباشرة خلف كرمة العنب ويطأ أسفل
الدرج ، تتلفت نحوه العلجة وكانت تعطي ظهرها واحتضنت الموقد الأرضي
المتصل بقارورة الغاز يلقي عليها فؤاد التحية فترد عليه وتواصل :

لقد نهضت مبكرا ، إجلس إلى جانبي ، وضعت أمامه القهوة والحليب وخفاف وهو ما إعتادت الوالدة تحضيره ، وإنسجما في حديث لطيف .

العلجة : أنت مبكر اليوم ظننتك سترتاح من طول السفر ؟

يحتضن فؤاد فنجانه بكفيه مركزا على محتواه ويقول لها أنه على موعد هام على الساعة التاسعة وما إن يكمل فنجانه حتى يضعه جانبا وينسحب عن الطاولة تاركا العلجة وهي تفتح ساقبها على صحن الخفاف تنهي ما بدأتها .

يركب فؤاد سيارته المركونة على الجانب الأيمن بالباب الخارجي وهو في أحسن حال و بتياب نظيفة سروال أسود وقميص أبيض وحذاء أسود لمام متأبطا حافظة أوراق ويحمل شنطة أتوماتيكية ، يتأنى فؤاد في مشيته رافعا هامته التي عكست نور العلم الذي يحمله ، يضع الشنطة على المقعد المجانب له ، ويدير المكبح خارجا إلى الطريق الرئيسي يبتعد عن الحي الشعبي وعن البيت العائلي وهو بيت أرضي واسع به فناء وتطل فيه الشمس كل يوم مشمس ووضعت به خم دجاج هو مورد مالي للعلجة وسندا لمعاشها الذي تمنحه الدولة لهم ، أفضل لها من مد اليد للغير .

في الطريق الضيق الذي كانت تسلكه السيارة كان فؤاد يتوقف ليسلم على معارفه من رجال ناضجين درسوا معه المرحلة الإبتدائية والثانوية ، وشيوخ غضت عضلاتهم يتحدثون إلى الرجل الباحث وقد أصبح غصنا فتيا وعاد نافعا من المهجر ، تميل السيارة نحو الطريق الرئيسي بإتجاه المدينة بسرعة تاركتا عجلاتها ضبابا كثيفا خلفها ، ورغم بعده عن الديار لأعوام إلا أنه لم ينسى جدران الشارع الذي عاش به .

زمن قصير وتقف السيارة أمام مقر الولاية ، ينزل السيارة ويترجل ، يخرج

ورقة من جيبه العلوي للقميص وينظر فيها ، يستوقف الحارس وبعد مساءلة يسير إلى الداخل يمضي فؤاد إلى مكتبه وكله نشاط يصعد السلالم ويدخل رواق طويل كثر به الغادين والأتين من الموظفين يستوقف واحد ليسأله :
لو سمحت هل دليتني على مكان مدير مكتب مدير المركز العلمي للبحوث ؟
ينظره الموظف نظرة إستفسارية لكن فؤاد يقطع عليه خلوته :

عندي معه موعد الآن ؟

هنا يشير إلى باب مغلق أمامه ، فيمضي مسرعا إلى مواعده ، يظهر فؤاد بطاقة الزيارة للحارس فيدخل ويعود مسرعاً .

الحارس : تفضل الرئيس ينتظرك .

مكتب فاخر مغلف بورق وردي ، وشرفة كبيرة أرائك من القضيفة الناعمة أما المكتب الذي برق خشبه فجلب النظر إليه ، وأرضية ببساط حريري وردي يستقبله الرئيس مصافحا ، رجل كامل البنية ممتلأ الملامح وإنتفخت وجنتاه حتى بانته عليه الرفاهية ، وقف يستقبل ضيفه خلف مكتبه شامخ القذال مهضوم الكلمات الرئيس (وهو يشير على ضيفه بالجلوس) :

أهلا بك السيد فؤاد كنت أنتظرك ؟

فؤاد : أهلا السيد "رؤوم" .

الرئيس : كل الدوائر تعلم بتاريخ قدومك ، لأننا إتصلنا بالقنصلية الجزائرية بكندا ولكنني لم أكن أعلم بموعدك الصباحي هذا ؟ متبسما هذا ترتيل جديد ربما الخوف من العيون المراقبة وللحيطة فقط ويواصل وهو يناوله كرم الضيافة ، علبة حلوة والتي يعتذر عن الإبتياح منها :

لقد إنتظرنالك منذ ثلاثة أشهر ونحن ننظم لذلك .

يضع فؤاد رجلا على آخر وينتثب على الأريكة :
لا بأس وها نحن نلتقي .

الرئيس رؤوم : الحمد لله على كل حال (ماسحا بيمناه على شعره) يتكى على
مكتبه ساندا جسده تاركا مقعده متجها إلى ضيفه :

نعم المهم عندنا أنك تدخل الجزائر لنتفتح بابًا على الجدة والعالمية لتحقيق المكانة
التي نرجوها ، نريد عودة أدمغتنا من الخارج ، فهذا برنامج رئيس الجمهورية
" عبد العزيز بوتفليقة" نريد الإعتقاد على مواردنا البشرية فالثروات الباطنية
أيلة للزوال فكل ثروة لم يسيرها المسير الكفوؤ نو الخبرة ضاعت من بين الأيدي
ويد بيد نعيد ليلنا نهارًا .

فؤاد : الكلام مفهوم ، والآن ماهو المطلوب ؟

السيد رؤوم : نريد رفع رايتنا عال ونفتح عيوننا أمام العالم ولا نخجل ، نريد
ربيع العمر للعباد وللبلاد ، ونريدك المشرف على البحوث العلمية والتكنولوجية
ولنا مركز بحث من أكبر مراكز البحث في إفريقيا ، ونريد عقولا تزكي بحوثنا
ووقع عليك الإختيار أنت وستة آخرين من خير الباحثين الجزائريين الموجودين
بالخارج (وهو يغير نظره نحوه وضامًا يدا إلى يد) :

نعم خيرة علمائنا والذين يحملون روح عالية ومن عرفنا عليهم من سيرة حديدية
ثابتة جديرة بالثقة .

كلمات الرئيس شفت الأذان ولكن فؤاد لم يهتم لذلك ، وإستمر الحديث حتى شهى
نفس الضيف وأخذ في الكلام وبتسهيل مراميه ، وعرف أن كل ما يحتاجه الباحث
موجود وإستعرض معه مواقع المختبرات على خريطة إلكترونية على الجدار
تصريح واضح بحياة جديدة ، حياة حاملة بحياة متطورة خير من بلاد الغرب

وما إن إنتهى الحديث حتى إستأذن مصافحا له مودعا في لقاء الزمن القادم .
وخرج من باب المحافظة إلى حديقة واسعة مكان حوى أشجار وأزهار علتها
بناية بزجاج أزرق وأسود ونقوشات بكل الألوان وعلى فتحة كل باب ركائز
ضخمة سندت المبنى ، وقفا على العتبة شرطيان يرتديان الزي الأزرق و
أمامهما طريق نظيفة وأشجار خضراء زادت من جمال الطبيعة وأناقتهما .
يصل فؤاد إلى سيارته المركونة في أحد الأركان ويحركها عائدا من حيث أتى .
كل هذا والرئيس يتبعه من زجاج النافذة حتى غيبه عن الأنظار .
بعد حوالي ساعة من الزمن تتوقف السيارة بمكان على الشاطئ ، المنطقة أهلة
بالسكان وعلى شريط تراصت به السيارات ، يترجل ويعبر الطريق المؤدي إلى
الساحل ، شاطئ تنس أول ما زاره فؤاد وعلى الرغم من الفوضى العارمة و
النفايات في كل مكان التي أكدت الإهمال ، فضل الوقوف بمكان بعيد عن المياه
الرجل في حالة نفسية مرتبكة وصورة زوجته وأولاده بكندا لا تفارق فكره ينظر
في الأفق البعيد حيث صفوة السماء وزرقة المياه والنسمات المنبعثة وموج
متسابق على الشط تغسل حبات الرمل ، يجلس إلى صخرة غرست وسط الرمال
وقالت نفسه : أنا إنسان بقدر مزدوج تركت أسيل وسُمُو ووالدتهم نيلي ، ولا
أدري ما أعمل الآن يطأطأ رأسه غارسا نظراته بالرمل تحت قدميه لكن يعود و
يستصوب أفكاره العرض غير قابل للنقاش وعليه بالرد غداً والرئيس ينتظره
الظرف يتطلب الحزم هذا ما قاله "رؤوم" فيلا بمدينة الورود بها مسبح كبير و
مرفق لوضع سيارة مرسيديس المهداة له وراتب يوازي ما يأخذه الوزير ،
بالإضافة إلى إمتيازات أخرى مختلفة مثل جوز سفر دبلوماسي كل هذا تعدى ما
كان يأخذه في بلاد الغرب ، تسارع الدم في عروقه وظهر في عرض سار في

وديان تحت الجلد وجبينه يتصبب عرقا رغم خفة الشمس التي توسط قرصها الشمس ، فؤاد رجل متزن يريد إسعاد الدارين غير أن أفكاره تهمل مشاعره مشاغل كثيرة ومهمة تمضي به إلى الخيار الصعب وقسمته شعوره إلى شطرين فتذبذب قراره ولكن الرئيس لم يكن صعب المنال معه ، بل تسالس وتسمع لكل مايريده تحقيقا لفائدة الجميع حتى نوه بدوره كباحث وأهمية تواجهه معهم ، يريدون تفعيل الخام والشرب من بحر علمه ورفع قيمة بلاد الجنوب والإنتفاع بمسلكه السامي .

لم يفق فؤاد من غفوته إلا والشمس تبعث بأشعتها الذابلة ، ولم تُعد ترى في الأفق إلاً خيوط براقاة تالألات على الأمواج المعاكسة ، وتفكير يهز جسده من الجذع . تنهد فؤاد زفرات ساخنة ، هو في البداية ولا تزال الأيام تحمل له الجديد . إنعطفت عجلات السيارة ودخلت الطريق الضيق الأهل بالسكان وجاوز البناية الأولى فالثانية وهاهو على بعد النظر يظهر بيت والديه الذي تعيش فيه العلجة على الرصيف تجلس الفتاة " ورود" ذات 21 ربيعا محياها كتاب بسيط مغلف بفرحة سوداء وتغطت ببوضتها سواد التراب ، وغبرات مشبعة بمياه فإنتشرت نقاط وحلية هنا وهناك ، ولعبت الهموم بلامحها فبان أنفها الرمز الواقف مقوس وشفتان رقيقتان ، وعيون أخذت شكل البيضة بانث مدامعها بها ، نفّخت جفونها حتى تأكلت جدية ملامحها حتى بدت في سن طفلة لا تتعدى العاشرة ولسانها لا يخلو من ترداد الله يرزق ما يشاء " .

يوقف فؤاد سيارته على عتبة رجليها ويلقي عليها نظرة ويناديها : ياهذه تعالي ؟ تنظر إليه الفتاة في تعجب فيشير عليها فؤاد أنه عليها فتتقد نحوه بخطى سريعة ينزل باقي زجاج نافذة السيارة ، ويضع يده في جيبه الأيمن للسروال ويناولها

أوراقًا نقدية ويدير المقود ويميل إلى بيته بعدما ضغط على المنبه ففتح باب موقف السيارة .

وخلفه لم تبرح "ورود" مكانها بل راحت تتأمل ما بين يديها .

ورود : ياأمي ما هذا ؟ وكأن عيونها لا تصدق والأكيد أنها أوراق مالية رقصت "ورود" فرحًا وغنى قلبها وإرتاح ، نظر إليها كل من مرَّ بقربها ، وعرف سرَّ غببتها ، فلم تسمع من يناديها فقلبها يكره البخيل وفؤاد من طينة البشر الكرماء التي لا تبخل أيديهم على العطاء للمحتاج ، يرتفع صوت المؤذن "الله أكبر" ينساب مع النسيمات إلى الأذان تسمع كل إنسان بالمنطقة عذب الكلام ، ومن هنا وهناك عابدين ملبين للنداء .

في هذا الوقت تعود "ورود" إلى بيتها ، بيت قصديري على عتبة الطريق الترابي تهرول وقدمها تترك الأثر ، تشد بيمنها ثوبها البالي الأسود ، أوساخ به هنا وهناك أسفله سروال قديم وحذاء جلدي وردي ، غطت شعرها بوشاح أسود وردي إنحنت ترفع ما سقط منها بالأرض وواصلت السير .

في البيت يجلس والدها المقعد بين أربعة جدران ، وإخوتها الستة منتشرين بالبيت وتزاحم حولها الإخوة الستة فناولت كل واحد منهم حبة برتقال كان قد أهداها بائع البرتقال ما بقي بالصندوق تركتهم "ورود" جانبا وسارت نحوى والدتها العجوزة الأم : لما كل هذا التأخير ، تركت نفسك لوحوش الظلام فالشوارع أنارت الأنوار والظلام صعب عليك ؟

الأم لا تريد تخويف إبنتها وإنما التنبيه لها واجب ، إجمرت خدود الفتاة وتلمست ضفائرها الطويلة ، تمسحت بلسانها على شفاهها حتى برزت أسنانها البيضاء تسأل الفتاة والدتها عن الرجل الذي حلَّ ضيفا على عائلة "بُكَّير" عبد الرحمان

ووصفته بالأبيض الطويل الممتلئ البنية .

الأم " من هذا ؟

ورود لا تكاد تميز وجهه ، لكن الأم تحاول إستذكار أهل العائلة وتسأل ابنتها عن المكان والزمان بينما تضع الفتاة يدها في فتحة ثيابها بصدرها وتخرج أوراق نقدية وتناولها لو الدتها :

أنظري ماذا أعطاني ؟

تنظر الأم في كف ابنتها فتسرع وتلف النقود وعلامات الدهشة تطبع ملامحها .
أوصفيه لي فربما عرفته ؟

أصبحت عيون الفتاة ترى جنح الليل ، وضياء المال يهز كيانه ، أسأل الفضول لعاب الأم وتركها الأمر في دهشة ، هنا يدخل أحد الصبية يطلب بعض المال فتد عليه "ورود" أنه مال للبيت وأن في نفس كل واحد منا أمنية أن ينال ما يريد لكن المال لا يكفي ، أما الوالدة "فتيحة" المبتورة ساقها الأيمن فتلزم سجادة و سبحة لا تفارق أصابع يدها فلا تشتكي حتى من الصراخ التي لا تفارق الجدران الذي تستند إليه منزوية بركن بغرفتها لا تفارقه كثيرا .

العائلة تعلوها الإنسانية وحب الحياة فلا تعني لهم الشكوى من الفقر شيئا فالقدر قسم قسمته ورغم من أفواه الأولاد الجائعة فلم ييأسوا يوما من معونة الجيران فلن تقف حياة الإنسان عندهم عند حدود الأكل والشرب فقط ، و"ورود" هي العائل الوحيد للعائلة .

الوالد هشام : ورود لقد بعثت فينا الحياة ؟ ، وبكلمات متبعثرة قالها ، تنظر الفتاة إلى فروة رأس والدها والتي لم تعد بها إلى شعيرات تظهر من تحت طاقة الحج التي أهداه له العام الماضي أحد العائدين من الحج .

أخذت الفتاة تحكي لوالدها ما رأته من كرم الرجل ، ووالدها يسمع وهي تطير
فرحا تعترف بالسعادة ، والوالدة فتيحة تدعو بالخير وترفع ، أغمضت العيون
عن القلب المحروم كلما أشرقت شمس النهار أظلمت حول ذاك الفقير الذي تجمع
به الألم وفر عنه الشقاء ، دموع الطفل سمير وجوعه فلم تلفت له الأنظار ، هو
شماتة وذنوب ولكن أصحاب الخير كثيرون .

تسلل الليل بخطى خفيفة وغطى المعمورة ، وإنطفأت أشعة الشمس وأنار نور
القمر المعمورة وأبصر فاقد المسلك خطاه .

اجتمعت العائلة حول المائدة بالمطبخ ، عائشة وباسم وعلى الرغم مما بلغوه من
السن إلا أن طباعهم لم تتغير ، كأن يفترشوا الأرض .

تهم الأم بصبّ الغذاء بصحن أمامها :

ألم يعد فؤاد بعد لم أراه لقد خرج باكراً ؟ ، وما إن تنهي كلامها حتى يدخل وبيده
المنشفة ينشف وجهه وكفه .

الأم : تعش طويلا كنا الآن نذكر إسمك ، يرد عليها فؤاد ببسمة .

عائشة : مساء الخير ياخالي ، أما نسيم الشاب الوسيم فيداعب خاله : لماذا حتى
الآن ، لا تقل أضعت الطريق يغرق الجميع في ضحكات بينما يجلس الخال إلى
الطاولة ويقابل أخته .

تسأل العلجة أخيها عن الأحوال فيرد عليها أنه أحسست بحاجتي للمشي فسرت
على شاطئ تنس المكان لم أراه منذ 30 سنة ، تسأله العلجة عن العمل فيرد أن كل
شيء مُرضي ، وأنهم لم يقصروا في شيء ، الأرضية والقاعدة موجودة و
الكفاءات مستعدة لتحدي بلاد الشمال أو الغرب ، وإذا توفرت العناية حدث
العجب ، الجميع يُنصت وقد وفقوا بين الأكل والسماع والمجادلة ، سرُّ العالم

العائد هو الحياة المستقرة ، وينقطع الحديث حيناً حتى تقول عائشة :
لم تقل لنا كيف حال زوجتك وأولادك "سُمُو" و "أسيل" فتلكزها الأم لكزة خفيفة
كُلي وأنت صامتة ؟

ذابت الفتاة خجلاً لكن الخال يرد عليها :

هناك هم بخير ، ثم يرفع عينونه نحوى إبنة أخته :

لم تشأ نيلي العودة معي ؟

هنا يحس يحس الجميع بمعاناة فؤاد وقد أدركوا ما يخفيه بعدما خطفه سؤال
عائشة فيواصل :

ترفض الكندية دخول البلاد فهناك تعيش السكينة والحرية وهنا طعننتني في
فرحتي بدخول الجزائر ، الواقع المر يفرض نفسه ، فؤاد بارع في إخفاء جروحه
فلقد هرب بما في ضميره ولم يهتم لما يقول لسانه ولا ما يؤلم عضلة القلب ولا
يهتم لوجل مرسوم على ملامحه .

ينصرف إلى فراشه أما العلجة فجذبت إبنتها إليها وراحت تسمعها المواعظ
أما عائشة فردت عليها أنها كبرت ويحق لها إقتحام مختلف المواضيع ، ترد
عليها أن أسكتي وأن مميزات أخيها قدرته على إخفاء مشاكله في صمته .

فؤاد قوام للمشاكل ولم يترك العنان لمشاكله يوماً فلا مرض ولا مرارة إستطاعت
إقصائه ، تحمل الوالدة الشاي وتصعد إلى أخيه وهي توصي عائشة بتطبيب
غرفة نومهما ، الدرج أحد هموم العلجة وتباطأة في سيرها تطرق وتدخل فتجد
فؤاد ممدد في فراشه وينظر إلى السقف ولا ينزعج إلى وصوت العلجة أمامه
فتناوله كوب الشاي ويستند إلى وسادة عند رأسه .

العلجة الأخت والأم ، تريد التنفيس عن العائد من بعيد ، الذي نزعته الراحة عن

عيونه ، كبح فؤاد معاناته ودحضاها وكتمها ، يقول فؤاد :

سألت نفسي مرات عديدة قبل أن أت وقد تبينت الصبح من الخطئ في فعلي
لكنني حزمت حقائبي وعزمت على المغادرة (وهو يقلب ذات اليمين وذات
الشمال) هو الوطن ، ومن يدري علني أجد راحتي هنا وقد حضيت بما لم يناوله
لي الغرب ، لكنه الخوف من المجهول ولكن بناتي كم كنت أتمنى أن يعيشوا معي
هنا لكن .. تجديني مشلول التفكير ، وكم هي صعبة لحظات فراقهما ، كيف هو
مُر هذا التفكير ، جسدي هنا وقلبي هناك رضضته صرخات الشوق .
حتى هذا الحين لم تنطق العلجة ، صامته منتبهة فيما هو عليه ابن أمها .
العلجة : الآن فهمت لما الخوف الذي في عيونك وهل تُصدق منذ دخلت وأنا
أفهم صمتك وحزنك الذي طبع وجهك ؟ ، والآن أنت هنا ولن تكون بغربة وأنت
بيننا ، قلت أن نيلي لن تدخل البلاد ؟ وأنها حرصت البنات على ذلك فهل هي
سبب حزنك ؟ ، يرد فؤاد بنعم فهي التي تضم البنات إليها أغلب الوقت وأنه
أغلب الوقت في المخابر وبين التجارب .
العلجة : وهل البنات يعارضن العودة ؟ يرد فؤاد أن لا بل هن يتكلمن العربية
ولو حتى قليلاً
العلجة : لا تلم نفسك يا فؤاد فأنت فعلت كل وسعك فلا تلمها ، وسع قلبك ربما
يأتيك القدر بالجديد وصبره ، وإحذر أن يستنزفه التفكير .
ينشغل فؤاد بمداعبة ذقنه .

علجة : صحيح أحسن النعم التي أنعم بها الله على الخلق هو الولد ، لكننا أن
نطأطئ رؤوسنا للأسى ونلوي أعناقنا ليتمر علينا الملل والمرارة كيفما شاء
كل دقة من دقات قلب المرأة وكل نظراتها طرقت الكرب ، توسطت عيون

فؤاد الألم ، وفكره تهدأ ، قلبه وحيد يناجي ذخيرة قلبه البعيدة .
الليل مقمر ونشر قرصه النور على الأرض وأنار الدرب للبشر ، الحب يملأ
الأرض ورغم الشتاء الذي يلبس الطبيعة الثوب البارد فالدفع الإرادة يدفع إلى
الأمم ويكمل السير .

.....
تظهر الشمس باسمه من وراء الجبال التي أحاطت بالمدينة تنعش السفوح و
البطاح ، تستنهض ماجمده الشتاء ببرده وإضطهد نفوس البعاد والذين تغلفوا
بملايش صوفية عليها تحجب عنهم برده .
يتمهل فؤاد في قيادته يريد كسب أكثر الوقت بالمكان ، يضع شريط أغاني
عاطفية ، كلمات قصيدة غنائية تتعمق في روحه حتى تسرفه في سلام .
وفجأة يظهر مكان تجمع به شيوخ ونعش يحمل على الأكتاف في إتجاه مسجد
المنطقة وعلى ضوء الصباح تنوح النسوة ويعم الحزن المكان ، تخرج فتاة من
المنزل الذي خرجت منه الجنازة في ثيابها الرث الملتخ بالأتربة غير منتعلة
تبكي المتوفي وأطفال صغار حولها يبكون مصابهم منظر الأسى من شدة
المصاب تشدُّ على حركاتهم ، هي مشيئة الخالق التي تجعل الإنسان يعتبر وهو
يبكي أحزانه ، فيدرك فؤاد أن العائلة فقدت أحد من أفرادها في مثل هذه الحالات
ستوي من في العالي بمن هو في الأسفل .

يسترجع فؤاد صوابه : سبحان الله غافر الذنوب ، اللهم إجعل هذا خير ، وترتل
الإستغفار بنفسه عدة مرات ، ويواصل مسلكه بعدما بانَّت الطريق وغادرت
الجنازة ، فالأيام إذا غارت على الإنسان لا من يصدها عنه إلا الرحمان .
في صبيحة هذا الصيف إستيقظ الحي المنطقة على فاجعة موت الشيخ "هشام"

والد "ورود" تاركاً خلفه سبعة أولاد وأرملة ، تلحفت وجوههم الرماد واحتضنوا المعانات وقساوة الحياة ، حياة مفلسة تعمق جرحها وجزع وفزع ، تبكي "ورود" بأعلا صوت ، وقد لبست ثوب الظلام ، تسحبهم عاصفة الحزن إلى الجحيم وسارت مهزومة حتى عتبة الباب الخارجي موقف ترابي محفر ، تنتعل خف أظهر إبهام إبهامها الأيمن وشعر طويل أسود و عيون على الرغم من الدموع فلم يقوى على إخفاء جمالها عيون سوداء واسعة ، ووجه دائري أبيض نبض جسدها بالحياة رغم الاحزان ، مات الحاج هشام والد ورود وهي تحيا حياة ميتة لقد فرح ذات يوم بالمال الكثير وتوردت خدوده ، لكن هي الساعات التي لا تتمهل وهو يخرج في نعش ويتركنا ننام في نعش لا فرق بين هنا والمقبرة .

تجمهر الناس يتأملون ولا يمنعون ، لكن أهل حي " التعاسة" يعون دورهم لقد منحونا ما منحهم الله مساعدات من كل حاجة ، وقفوا وتحديثوا ودعوا لنا وللميت وحنوا على اليتامى ، وهذه أيام تثور وأخرى تهدم ، ولكنه ضعف المخلوق أمام إرادة الخالق تخفف الضغط وتنسي القساوة تغمر النفس وتتعش باقي الأيام .

.....

يسير فؤاد رفقة الحارس إلى باب مكتب المدير ويغادر فيفتح الرئيس رؤوم ويقابل فؤاد : كنت أنتظر ك منذ زمن بعيد ويمد يده بالمصافحة ويتصاحبا إلى غرفة الجلوس يضغط "رؤوم" على الزر الأحمر ليمنع الغرباء من الدخول يشرب فؤاد كوب ماء حتى يرتوي ، وتظهر تفاحة حلقة ، المكتب واسع به نافذة واسعة من الزجاج وأرائك من القضيصة الخضراء بعثت الحيوية بالغرفة وزينت أحد الجوانب جرة بنقوش مزركشة وألوان براقية ، يناوله كوب ويسكي فيشير عليه فؤاد بلا ، ويبادره الرئيس "رؤوم" بالقول :

سيد فؤاد أنت باحث ومكتشف لأسلوب جديد للرصد بالأجهزة الرقمية المتطورة ولأنك ملتزم وصاحب ثقة موثقة بشهادة كل من عرفوك فإننا نكلفك بمهمة لا أظنها صعبة على شخصك وأنت تحمل المعايير الدولية التي حددها المؤتمر الدولي بالنويورك مؤخراً والتي تحدد مواصفات الرجل المسؤول .

ينهض فؤاد عن طبعه الهادئ وهو يشبك يدًا بيدٍ : لحد الساعة لا أجد تفسيراً لحديثك فيرد "رؤوم" : لقد أوكلت لك مهمة رئاسة المبحث ، وستشرف على فريق من الباحثين الجزائريين العاملين في مجال تفعيل وتحديث أجهزة الجوسسة الرقمية ، ومركز البحث جديد ببلادنا enfin (وهو يتوسع في جلسته) بحر العلوم واسع وعميق والدور ستركبه أنت وسنخرج مع بعض لنرى الموقف ويرد عليه فؤاد أن يكون الفعل الآن ، يبتسم رؤوم وقد لمس صورته في تطلعه وينهض دون اعتراض ، وينطلقا في وقفة تفقدية يسيرا وهما يتابعا حديثهما والمركز لم يكن بعيد عن مكان تواجدهما .

"قيمة العقل ليشد في مولاه" ، عبارة نطقت بها امرأة جاءت تُقدم العزاء لعائلة "هشام عز الدين" الفقيرة ، أطفال يسرون بهياكل عظمية ظاهرة ، أشبعهم الوجع وتقاسموا الألم قبل وبعد دفن الجثة ، ولم ينتبهوا لها وهي تغادر فالموت يشوش المضجع ويمس عزيزا بل أعز .

يقترّب الناس من مجلس "ورود" وهي تعتنق الباب الزنكي المثبت بشق الأنفس وتركز حتى حرّم الإقتراب منه ، ووقفت وهي تحبس دموعها وقد إرتسم جسدها شبهاً مقوساً ووجه باهت وبكل معاني الحزن النفسي قدمت لها التعازي ، لا من يبتسم حولها حتى العلجة وإبنتها عائشة يعزيانها ويغادرا .

تسلك المرأتان الطريق الترابي المؤطر بساقية يغمرها الماء ، ويحاولا

من حي إلى آخر تخطي المستنقعات وبرك الماء .

عائشة : الدنيا إذا ظلمت أظلمت على الفقير المسكين (متنهدة) ياهل ثرى بعد

عضة الزمن من لهذه الأفواه الجائعة التي خلفها الوالد هشام بعده .

ترفع العلجة حجابها بيدها اليمنى لئلا يتشرشح في الماء والوحل :

من قال هذا الكلام هشام كان ميت وهو حي وإن كانت تمنح له فهي قليلة ، لقد

منحته له شركه كان يعمل بها أفلست فيما بعد .

أما الوالدة وهي مبتورة الساق فلم تمنحها الدولة عجلات وقد بترت بعد سرطان

بالفخذ . والعناية الإلاهية إعتنت بهم .

وواصل الطريق بحديث ملتها المسافة ويمرا بالأزقة البالية وجدران قديمة

تجمعت بها برك المياه المطرية شارع "التعاسة" بؤرة للحشرات والديدان و

الذباب والغبار وعلى الرغم من الشكاوي فالمسؤولون لهم مسؤوليات محدودة

ومع كل صيف تزداد العفونة بالوادي القريب من الشارع ، زبالة وبقايا من كل

نفاية لطخت الوجه الجميل للمعمار الرائع ، أما البرك فهربت المارة من أمام

السيارات .

.....

الساعة تقارب الثانية بعد الظهر ، والشمس بدأت تنحرف عن وسط السماء ، يقف

الرجلان في ساحة البناية الشامخة التي تحصر قرص الشمس عن الظهور ، لكن

نسيم خفيف يداعب أوراق الشجر وينشر الراحة . يضع فؤاد يديه في جيوبه و

شمخ برأسه ويتألم المكان ، أما الرئيس رؤوم فيشد بشجيرة ويتألم لفؤاد

أترى هذا الغصن إن لم نعتني به لم يقوى ، وهو حالنا فالعلم إذا لم نعمل به ولم

يتم تفعيله لم يعد بشيء علينا ، والإرادة والثبوت وإستغلال طاقاتنا هي رأس

الحكمة يرد عليه فؤاد أن العلم هو المانح للقوة ، والمحيط يُدعمنا شأنه شأن الشحنات التي تولد الطاقة وتمنح السيطرة والتحكم ، نريد الإيجاب ونرفض السلب يرد الرئيس أنهم يريدون شابا فاهما وليس مقوي السواعد فحسب ، نريد من يرفع من غبننا العلمي ويمنح ثقته فينا ، نريد ذلك الجامد المسؤول .

فؤاد : جيد وأنا أعيش في كندا تعلمت أن أفضل ما يعبر عن الأشياء هي الصورة وهي الرؤية الصحيحة وظرف كشفي مهم ، ويسأل الرئيس عن مساحة المبحث ؟ فيرد أنه بهذه البناية ويسير به إلى الجانب الأيمن حيث خريطة البناية يأخذ المسطرة ويشير بها : نحن هنا على مساحة عشرة هكتارات طولا وعرضا وله ثلاثة طوابق ومعدات دقيقة وكل ما يريده الباحث .

يتلفت فؤاد إلى الباب الحديدي الخارجي محدد الأبعاد حيث الوسع والشساعة حيث ظهرت الشمس تبعث بدفئها بفصل الصيف وهو في أواخره .

فؤاد : وهل مكانه ضمن ، أراه منفرد عن الأماكن الأهلة؟

يضحك الرئيس حتى إستباح سمعه : لا تخشى شيئا ، وإن كنت تقصد الحماية فهنا نسمع حتى دبيب النمل وهي تسير .

يعانق صديقه وهما يلويان على الرجوع : قل لي ما رأيك ؟ هل أنت باقي ؟

يتنهد فؤاد دون أن يصدر رداً ، ثم يرد لقد مر على قرار بقائي عشرون دقيقة يبتسم الرجلان وهما يعبران الممر الخارجي عبر الدرج الأسفل ، يركبان السيارة السوداء وإنصرفا .

يتجاوزان المكان حتى تسير السيارة على الطريق المعبد المشجر الدائم الخضرة متراسة على طول الطريق ، مظهرة النظام والإهتمام الدوري لمختص بيئي فكانت العلاج الروحي للناظر وأنسته صورة التصحر وأوقفت زحف الأثرية

فؤاد باحث ورجل علم وبحث واحد من بين الستة الذين دخلوا التراب الوطني
وهيأت لهم القاعدة والمادة الخام ، ساعد من سواعد هذه الأمة الأحرار لا يريدون
الأجانب هم وسادة لأنفسهم تفاديا للحماقة وإذابة الأنفس في الغير ، يحاولون بهم
التغلب على العادات الفرعونية النامية بالبشر ونزع الغلاف التخفي ، هو قرار
وفعل وإندماج كلي في وعي ومشاعر العظمة .

يريد الإنسان هنا خلع ثوب الضعف وتوديع الليل الذي أناخ على البيت وأبطأ
ضوء الصباح ، هم الشعلة وهم المانحين للأمل المانعين من ضريبة اللا شيء .

.....

في المساء تظهر الفتاة ورود أسفل المنحدر المحاذي لساقية بأرض زراعية
جانب الطريق وحيدة هزيلة الجسم ضحية نحافة وضعف ، ضررها باد تحت
العباءة السوداء ، وعيون تحتقن الدمع والتي لا زالت تفيض على الخدود
تحتضن أحزانها في عزلة وإنزواء ، توقدت نظراتها وحزنت ، ظهرت بأشعة
الشمس التي ارسلت خيوطاً باردة سارت بها حوية وهي عائدة بالبيت .
هاهي جارتها "ثريا" تتبعها من الشرفة بعناية والليل بدا ينمو ورود لا تعيرها
الإهتمام ، رؤيتها البقاء منفردة تلكزها "ديامانا" أصغر البنات :

"ورود" أمي تنتظرك بالبيت ؟

"ديامانا" أصغر البنات وأخفهنّ قدماً وأسرعهن حركة لها العديد من المواهب
حب الرسم والرياضة وجمع الحطب لوالدتها ، إنتشرت بقع بنية على خدودها
بنت محبوبة تربعت على عرش القلوب وناس حي التعاسة ينادونها "أميرة البنات
لها جمال فطري إستنطق فطرتها الطفولية أليفة ومداعبة.

على قارعة الطريق تتوقف سيارة ترفع العلجة ستار نافذة الشرفة وتشد بيديها

على الدربزون قلبها ينبض عندما ترى أخيها وحيد أبويها ورغم إكتناظ الأوجاع
وتفادى الآمه وشكواه و غرابة أحواله .

تترك الشرفة وتنزل لترى القادم وهو يغلق خلفه وبيده مفاتيح سيارته ، الأخ
رزق غالي ولأن فؤاد غائب عن الديار فعلية تريد أن تنسيه همه وإمتاعه و
مرافقته ، تقابله وتسأله عن أحواله ، فيرد أنه بصحة أحسن منها (مداعبا لها)
ترتفع الموسيقى منبعثة من جواله ينظر في الرقم ويفتح عيونه ، يسرع الخطوات
إلى الفناء ويقف أسفل الكرمة ويرفع صوته من أسيل أم سُمُو ، أسيل كيف حالك
أنتظرك كل يوم لماذا هذا الغياب يا إبنتي .

سُمُو وأسيل بنتان مهذبتان تحبان والدهما وهما أريج حياته وحُلوها لم تهاتفا
والدهما منذ يومين حتى إستغيبهما يسألها عن غيابه وأثره بهما وعن إمكانية
مجيئها ، يحكي لها معاناته ونار شوقه إليهم وأنهما يمران بباله كل حين فيطير
النوم عن عيونه ، الفتاتان توأماتان هما في العقد الثاني من العمر .

يجلس فؤاد إلى مائدة العشاء واجلا ينظر في البعيد حتى تسأله العلجة عن وحشته
فيرد أنها بناته ، فتسأله عن مجيئهما إن أمكن ، فيرد أن سيطرة نبلي والدتهما
عليهما لا يتركانهما يرو صحيحًا ، طول لسان وكلام حمم من نار وسخرية ، هنا
يحاول "باسم" إضفاء بعض الرطوبة على الكلام فيسأل خاله عن عمله بقوله :
أنت عالم لا ألف مثلك ؟

يُدرِك فؤاد نية ابن أخته فيرد بنعم (مبتسما) نحن ستة كُل في مجاله ولولا الجدة
لإصطحبتك معي .

إستلطف باسم تغيير نمط الحديث وردَّ أنه لا يقوى على فعل ذلك فشغلك يلزم
قلب جامد له صورته حلمه منذ الصغر وليس مجرد كلام ومجهودك ثمرة عمر

ونحت بالقلب وتعمل بتركيز فانت مقل الذي سيعيد ذاكرة السيارة لتصحيح سارية السير ، تحولت العلجة وأخيها بعد العشاء إلى فناء البيت وجلسا تحت كرمة التي شرعت في رمي أوراقها بعدما هاجمها شهر أكتوبر وأوسع أيامه ، لم يعد بمقدور أحد تفادي البرد وعلى الرغم فؤاد يحب المتعة والإنفراد في الأركان الخافتة و هاهما في جلسة لطيفة .

فؤاد : هزمت قلبي وقسمته روعي تذوب بين مكانين بي مشاعر لا يستطع التعبير عنها شاعر والأفضل لي السكوت على الكلام (يتكلمش في قعدته ضاماً رجلاً لآخر يحتضن الهواء يمد يده وينزع ما علق بها من خملة بيضاء) ، لم تشأ الأخت مقاطعة أخيها ولا تغيير مشاعر الإهتمام ولا إطفاء غليانها . فيشرح لها فؤاد كيف كانت نظراتهما وهو يغادر البيت وأن الصورة عالقة بفكره لذا سيبدأ العمل بداية من الغد .

كست علامات الهدوء العلجة وأحاطت أفعالها وحركاتها ، الصبر فرج خفف عنك ، الإنسان منا يفعل ما ينفعه وما يضره فلماذا نشرب الخمر ونحن نعلم أنه رزق خبيث ؟ ولماذا نجهد النفس ونحن نعلم أننا نبحت عن المرارة ، صحيح البيت رمز التوحد وجمع الشمل لكن أن نفرض شيء على الغير فهذا غير ممكن (وهي تنتهد) الأكيد أننا نحب أوطاننا ونيلي تحب كندا هي نبتة هناك لها جذورها وأنت الطير الشادي على الغصن الطري ، تجمع بين الدمع والفرح وبين الصمت والعاصفة وبين الغربية والعروبة هذه هي الحقيقة وبناتك على الرغم من أنهما من صلبك فعمرها كافي ليختارا ما يريدان ، فهما حال النخلة الشامخة في بطن الأرض وكندا البلد المهم ، هناك قلوب غرست بهم المفاهيم وحب بيتهم أصولهم مهمة ومتأصلة لذا أنصحك بعدم التشديد عليهم .

الرجل كله جوارح صاغية ، والكلام عبر عن ما يريد فيرد أنه يدرك معنى القول ولكنه سيهضم الواقع بجحفله ، فالمشكل في والدتهم المسيطرة على عقول (مبتسما) مثل الكوابل بوادي كولومبيا .

ترد العلجة أنها تفهم ممانعة نبلي ، (يرد فؤاد بكلام يقذف جمرات كاوية ممزوجة دما كادحا في القول بأنه لا يعتم لها ، ويترخى مطلقا روحه مستندا إلى الجدار فكره بعيد متحررا مستسلما ينظر فرحا علّه يعود يوماً ، غارقا في أحلامه سقيما معتلاً .

.....
مع قطرات حبات المطر الخفيفة ، وإرتفاع درجة البرودة ، في فصل المطر تلتئم ورود داسة شعرها تحت نمرة سوداء ، تخرج من بيتها بعدما طمأنت والدتها أنّها ستعود بالحليب من بقالة عمي الجيلاي " ، تخرج تجر أحزانها ذيل طويل وخيبة بادية مشلولة التفكير .

الصباح في أوّله والصمت يطبع الوجوه ويعمُّ البطاح والأزقة الضيقة ، وهاهو مشيها الخفيف يتراء في الطريق الترابي يتسارع ، تدخل الزاوية المنغمسة في الظلام ، وتعبّر إلى الشارع الرئيس حيث بدأت حركة السير وصوت الأنعال تخرق الأرض فتكسر الصمت الصباحي ، يسير خلفها "الشارف" ويخفُّ الخطى وكلما أبطأت أبطى خلفها ، وبين رعب ورهب ورغبة هاهو يتربص بها الأذى حينما تصبح بركن ضيق جاف ، فيطوقها ويحتضنها بعنف ، ويغلق فمها بينماه فتتخبط بين ذراعيه طالبة النجدة مبعدة كفه بعضة من أسنانها ضاربة بمرفقها الأيمن بطنه ، تصارع شراكه المطوق لها ، الشاب مكتمل البنية قوي صامد سريع الحركة ، أحكم قبضته على ورود التي ظهرت كالطير الجريح بين ذراعيه

في هذا الحين تظهر سيارة "فؤاد" الفاخرة تتأني شيئاً فأخر يقابله من بعيد خيال فتاة تصارع جلاد لقد أدركها فؤاد وتنبه لها ، فيسرع صائحاً : يا هذا من أنت؟ أتركها؟ وقبل أن يصل إلى المكان يُهرول الشاب في سرعة البرق ملقياً بالفتاة أرضاً والتي إنهارت وتوسدت التراب فتخرّصت وتخارصت وتجمّدت مشلولة الحركة ، يحاول فؤاد إنهاضها وإسعافها ناظراً في وجهها الأبيض القمر يهزها ويصفعها : يا أنت؟ إنهضي.. لقد زال الخطر؟ ولا تزال الفتاة مرمية على الأرض فاقدة للوعي ، وقد بدت كالضحية تتربص وتحاول الرد على هتافات مُناديها يواصل فؤاد هزها ويخرج من جيب سترته قارورة عطر صغيرة يفتحها ويبلل كفه اليمنى وهو لا يزال يحتضن رقبة الفتاة يمر أصابعه حافة أنفها فتستنشق عطره الرطب ، اللحظة تتحسس ما يدور حولها ، تفتح جفونها ، وبتشجيع من السيد تدب بها الحركة وتعود لها الحياة : أين أنا؟ أين ذهب؟ تنظر فتجد السيد أمامها ، تحز مشاعرها وتحاول تفادي إضطرابها ، كما يحاول تهدأتها بإلحاح منه مطمئناً لها .

تنظر " أم ربيعي" من البلاكونة فترى الفتاة ملقاة على الأرض وإلى جانبها أخو العلجة ، امرأة تعدت العقد الثامن عُرفت بطول اللسان والتنكيل بالكلام ، تتسمّع دبيب النمل وضعت الناس تحت المجهر ، وكلما تخاصمت مع جارة زلزلتها بالكلام ، تفتش في حال الناس وتفقه فيه ، ولا تزال تنظر إلى الفتاة .

يستمر فؤاد في إسعافها حتى تتوازن وتنطلق إلى مبتغاها وقد بدأت الحركة تقوى وتسرع ، إبتسم فؤاد بسكينة ينظر الفتاة وهي تسير بخجل .

تملئ وجه فؤاد نورا وعكست ملامحه ما في قلبه ، أطرب ووسع صدره ، حتى إستلطفه الجيران وبعض رجال الحي ، ذو فطرة وفكرٍ ضمني ، ذو عقيدة قوية

صافيا محبا نابذ للمهالك محب للعلم والبحث .

يتجه إلى مكتب الرئيس رؤوم ثم يخرجنا معا إلى مركز البحوث ، بعد مدة زمنية قصيرة يصلنا إلى المكان فيشير رؤوم إلى المكان المقفر الصخري المتواجدا به : هذا المكان هو للتجارب الخاصة ومن كل نوع ؟

فؤاد (وهو يضع يده على جبينه) ما يسمى بمخبر التجارب الهندسة الفضائية، و

جيولوجيا الأرض هل تسمح بذلك ؟ يرد رؤوم بنعم فيواصل فؤاد : طبعا

بإستخدام الصور التوليفية التي تتطلب مناطق فريدة ، وهو ما شبيهه نيفادة

بالولايات المتحدة الأمريكية يرد رؤوم وهو يتقدم في المساحة ، إننا أحفاد عصر

النهضة ، وبعض التجارب الإستكشافية تعتمد على التفجيرات الإباحية ، وهي

بعيدة ومعزولة عن العمران ، يلتفت فؤاد رؤوم إلى المسافة التي قضاها في

الطريق فرد أهما أخذ الطريق الخلفي ، يصعدا درج البناية إلى بوابة المركز

يرفع الشرطيان يمانهما إلى الهامة ملقيا بالتحية فيرد الرئيس بحركة مماثلة و

يفتح الباب الزجاجي أتوماتيكيا ، ويغيبا عن الأنظار في الطابق السابع

رفعا بالتحية إلى كل من يلقاهما ، ويدخلا المكتب العام ، يجلس إلى مجتمعين

حول طاولة مستديرة :هانحن في الموعد ، يأخذ مكانه على رأس الطاولة ، و

أمامه إزدواجية المجتمعين ويأخذ فؤاد مكانه بينهم فيقول :

في الحقيقة كنا نتفقد حضيرة التجارب (وهو يتصفح ملفات أمامه) ثم وهو

يتذكر أعرّفكم بفؤاد هو رجل علم وبحث وافد من كندا ومن اليمين ، سولجان

عوف مختص في البحوث الفيزيائية ، ربعي فايز " بحوث فيزيائية هوز أصغركم

باحث بالكيمياء إختصاص مواد طبية ، فؤاد عبد الرحمان و"سراج شكيب "

إختصاص علوم تكنولوجية وفيزياء نووية ، أما " مركيز " بحوث طبية .

وكما ترو و تسمعون كلكم نافذة وحقيقة على الآخر ، وكما تعلمون بفقدان المعلومات والبحوث المعمقة وإتباع التشفير والنظام الرقمي بيننا قد تختل مواقعنا ومكانكم يستوجب التكافل والتوحد ، وكما ترو المركز بمكان بعيد عن العمران أردنا به الخروج والتحرر عن الجماعة وموقعه الإستراتيجي يفي بالغرض لإنهاء الزرنيق سمومه ، فلا يستطع الفيل إخراج خرطوميه وهو يجري هاجمًا ، وما نقوم به هو إنقاذ للضمير وتخصيب لمعطيات خام .

يتجه رؤوم بالكلام لفؤاد عبد الرحمان فيما يخص زملائك فقد وصلوا منذ أسبوعين ، وآخر ماتم الوصول إليه بسواعدنا وعقولنا إختراع المنظار الليزري الذي يحدد المسافات ، وهذا ما نتعجل نحوه ، أجهزة رقمية لتحويل الأصوات مثلا صوتي حيوان إلى إنسان ، وإختراع درجات تطير في الهواء ، وإختراع بوصلات رقمية صوتية تنصتية تتغير كل ثلاثين ثانية ، أما العمل الموجب هو تكثيف الجهود حول الإستكشافات ، والحذر من جريمة الكمبيوتر وما يلحق من ضرر بالمعلومات ، وكل ما يستغل في أغراض سلبية من إحتيال ولصوصية ويجب أن نكون أقوى من الضروف ، يجب تزويدنا بأنظمة وبرامج أكثر حزم وفعالية ، كما ترو هذا صعب ودقيق محتاج إلى جدية وذهنية وعمل وتركيز الجميع ساكنين وتتسمع أنفاسهم الصاعدة والهابطة ، لا يتكلمون وكل مالهم و ما عليهم بُسط أمامهم ، إرتفعت هاماتهم نجوم وضاءة في ظلمة ضاربة ، و الشمس بزغت علامات كونية أبهجت النفس فات الشتاء البارد وذاب الجليد الخانق ، وإفترش الربيع سجاده ونبت العشب وألوان الأزهار وحلّق البلبل يملأ الكون وعمت البهجة وضربت بالأرض ، وعمّت الأصوات ترفع الرهب الكاسح ، شدّ رؤوم يدًا بيد : علينا الأخذ بأوطاننا والتحليق به بعيدًا ، بكم نغيّر

الحال ونرتدي الثوب التطوري ، لأننا لا نرضى بالتبعية ولا بالسيطرة ، والأمة ستحفظ لكم فعلكم .

ينطلق كل إلى عمله ، يسير فؤاد سالكا الممر الأيسر منقادا بشرطي وعلامات الإستقرار تعلقو قسماته ، وحالة شعور غريبة تطبع ملامحه ، هو البدر بداخله وضياء ينير دنياه ، مشاعر بقلبه تدفئ برده وتذيب سقيع النفس ، يفتح الشرطي الباب الحديدي الرمادي ، ويناول السيد المفتاح ، يقف فؤاد متصفحا معدات المخبر المعنية بعمليات التقطير والترشيح والتبلور والتكليس والتذويب وغيرها وفي الجهة المقابلة أحواض ومركبات ، يتقدم قليلا ويرفع عيناه مصوبا نحوى الباب الزجاجي ويفتح إستعراضا على أجهزة الكمبيوتر يسير بين مواد كثيرة للطب ، كل شيء هنا يتأمل ولسانه يقول " ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم نرحمنا و تغفر لنا لنكونن من الخاسرين "

.....

في الساحة الواسعة المعثرة بالتراب المفتحة على غرفتين ضيقتين وتزاحمت المطبات وضيقت فرصة إيجاد الراحة ، إجتمع الأولاد إلى والدتهم وعلية تعتكف غرفتها مدُّ عودتها بكيس حليب ، وجهت لها الأم أكثر من سؤال لكنها لم تهتم لها مكثفية بقولها : فيما بعد ؟

تتمدد على طول السرير ، وتخلد في راحة لأطرافها ، لكن جفناها لم يغفيا ورود تحسن السكوت كما تحسن الإستماع ، تدير رأسها إلى الحائط الذي يشارها ألامها ، وتشاور صمته ، تريد تصويب خطئها بعدما أهانها صديق فقرها وزميلة في الشارع "الشارف" ، تضع قدميها على البلاط وتعدل بيدها نمرة عنقها التي تجمعت في الخلف وتقف تجر رجليها مستمسكة ألامها

يحرقها لهيب حرق قلبها وألم لا من ذاق مذاقه ، تريد شتم أحدهم لكنها لا تتقن فعل ذلك وتستغفر الله وتسكن .

تجلس "ورود" إلى والدتها وحولهما الصبية هذا يعلو وهذا يدنوا وآخر يهتف .
أمي لم نرتكب جرماً لأننا نحيا في فقر وهو عطاء الدنيا الذي فوق احتمالنا سنين في هذه الدار والجيران لا يبخلون علينا ، المسكين لا قيمة له (مستهزأة) لا جيران ولا قرابة هذه حقيقتنا هناك من داس على كرامتنا ، ويلبسون رداء الغش والخداع وينشرون الأغلاط متسترين بغطاء اللطف مفتعلين الحب و الصداقة ، كانت الوالدة تحاول سحب خيط تحكم به رأس الحديث وتحاول فك الشفرة وهي مشوشة خاطر : ماذا هناك يا بنيتي ؟ في الحقيقة منذ عدتي من البقالة ، أنت مضطربة حتى زهو وجهك تغير ، ولكن "ورود" تداعب خيوطاً تمردت عن ردائها مرتخية الوجنتين متفادية وجه والدتها هنا تنطق : اليوم وأنا ذاهبة على البقال ، وفي زاوية (وهي تشير بسبابتها اليمنى) وبقرب من منزل الخالة حليلة مقابل شرفة "أم ربيعي" خرج عليا الشارف ، وبوجل نعم كان هو وبدون مهابة غمّ فمي ووثب عليا كالقرصان ، فلم أحتمل سقطت لولا جارنا الجديد فؤاد (وهي ترفع عيونها نحو والدتها) : المهاجر العائد لهلكت بين يديه تتوقف الفتاة وهي تحكي ، وكانت كلما تكلمت إرتسمت على شافتيها ضحكة خفيفة وغزا جفونها وابل من الدموع عجزت حركاتها توقيفها فإسترسلت سيولا شفافة تاركة مسلكاً واثراً على خدودها .

أما الأم فالموقف فقد أخرصها ، موقف مر أحسته بإبنتها التي تزلزلت أمامها كيف لنا وعرفة الصالح من الغبش ، والناس لا يقدر عليهم إلا رب الخلق ، فما أفسى البشر ، القوي لا يهتم للضعيف وكأننا في ميزان والقول أغرب هذا ما

يطابق تتكحل بإبرة وتتخبط بمسمار .

الفتاة منكسرة غارقة في جور مستسلمة تبادرها الأم بسؤالها : ماذا فعلت أنت؟
ترد لما سمعت خطواته خلفي تنساب وتترك سخطه الخامد الجاني الضائع
تتقصدني صحت مستغيثة طالبة للنجدة فصادف وأن كان الجار يمر من هناك .
ترد الأم أن الله بعثه لك لولاه لهلك (وهي تعظ على شفيتها) ، الأم ثابتة و
متعمقة تريد إبعاد كل مغمض فهم عن عيناها ، فتصحها بالحذر فالشارف كان
يحبها ، وقد طلب يدها من والدها وأنها رفضته هذا فيما مضى .

جلس الصبية ينصتون إلا أصغرهم "ديامانا" ومن قبلها "سمر" اللتان كانتان في
غياب غارقتا في حديث ولهو صبياني ، كاسرتا الجور وطوق الجليد ، وقد كانتا
من قبل يجلسن في كثير من الحالات إلى والدهما ، وروضة إبنت عشرة سنوات
وكريمة إحدى عشر عام فصمتتا ، سامي وصالح ملأ الجو صراخ ومشاغل
كلامية ، العنفوان والنضارة والحماس ثبت عليهم ، عالم طفولي ، فكانت الأم
تشارك هذا وتجاوب عن أسئلة ذلك .

الأم : إيه مثل مرج البحرين ذاك مالح وذاك حلو ، والإنسان الغافل من لا يشكر
الله على النعم ، والفقير لا يزال لم يجد حتى الراحة ، الخبث يملأ قلوب الناس .

.....

ليس وضع اليوم بأحسن من الغد ، يجلس فؤاد في المخبر في مئزره الأبيض و
أثنى من طول الكمين ، تظهر ربطة عنقه السوداء ، قبضت عن وجه أبيض
دائري ممتلاً وعيون واسعة سوداء ، بدا في نظارته يحمل الراحة ، يجلس
متصفحاً مواد كيميائية وطيفية ، رجل في الهندسة النووية خبرة و علم ، يدخل
غرفة الكومبيوتر ، يضغط على أزرار ، يدخل وروم يحمل أقراسا مضغوطة

تشكو من الفراغ هذا لك ، برامج معلومات تفيدك ، يضعها أمامه على الطاولة
ثلاثة أقراص) ثم وهو يضع يده على الأقراص) :السرية مطلوبة ، يرد عليه
فؤاد بإشارة غرابة من عيون فيبادره رؤوم : نعم السرية التامة ، فنحن نتفق و
نختلف (يقترب منه ويدلي برأسه نحو وجهه مبلقاً في عينيه) يخرج ورقة
من جيب سترته ويفتح إنطوائها ويضعها أمامه (الرئيس: لأنك لطيف سأقتحمك
وأرمي بلايا عليك) .

يأخذ فؤاد الورقة ويتدقق فيها ويرفع نظراته نحو رؤوم مستفسرا ، ويعيد القراءة
رؤوم : بك طاقة وتملك الإرادة التي يجب إستثمارها ، وبصوت هامس : جريمة
القرصنة في الكمبيوتر ، وإلحاق الضرر بالمعلومات ، والأقراص السلبية
أعلمت مانريد ؟ لا يزال فؤاد مطبقا نظره على الرجل ، طريقة تقيح جِماح
الإحتمالات ، (يبتسم رؤوم وهو يرفع كيانه عن صفحة الطاولة ، يسير قليلا) :
بالضبط هذا مانريد ه سدّ النقص .

فؤاد: سأحاول ؟

رؤوم : لا نريد تعطيل المراكب السائرة ؟

فؤاد : سنبدأ يوم الغد ، أما الآن فسأضع الإطار الأوسع لإستحالة هذه العمليات
بناءا على النتائج لقد حقق الأروبيون نتائج باهرة في هذا الميدان .
يتركه الرئيس وهو على عتبة الباب يسأله عن مفاتيح السيارة والفيلا فيرد أنه لم
يزر الفيلا بعد وتوعد بزيارتها بعد العمل ، يوصيه رؤوم برمي مشاكله
الإجتماعية خلف ظهره ، يقاوم فؤاد إبتسامه والتي كانت في الحقيقة لا تصدر إلا
للضرورة .

بدأ عهد جيد ، فاصلة بين الجهل والنور ، وتاريخ حضاري جديد فيه صوت

العلم عالي وهاهو الرجال الأربعة وينضمُّ إليهم خامسهم ولا يزالون يسألون يسألون عن مدى توارى الزئبق في المنطقة ، في مساحة لا تبعد عن المركز إلا بعشر دقائق سيراً على الأقدام ، أفق فسيح معتم بصورة الشمس الحارة وتعتمت الرؤية بلهيب بعيد ، وتراب تناثر فألف الأجواء ذرات إحتجاجية لا ضوضاء ولا شجب صوت ، الصمت يكبح زمامه ، وعلى بعد البصر جبال صخرية تبدوا أوتاداً في صميم الأرض الصلبة ، وما زاد من الألم مضضاً إعتبار المكان قطب سياحي بإعتبار إحتوائه على آثار فينيقية بمنطقة الوسط الغربي ، تجمع به الناس هنا وهناك .

شكيب : نامت الدنيا هنا في يوم ما بين الأنقاذ ، خمسة آلاف عام سيطر البشر على المكان وأقاموا حضارتهم .

سولجان عوف : أتذكر عمق الحفرة التي إمتدت خمسين عاما وبعمر سبعة أمتار وعلى حسب التجارب تنام هنا كمية لا بأس بها من سموم الزئبق ، فيما مضى كان هذا المكان لرمي النفايات ، والآن كما ترى هو للعمران والحركة وتتداوله الأرجل ، وقد أُلّف إنسجام لكنه عزف أوتار الموت .

كانت هذه كلمات إستفسارية ، وتحرير للذكريات وإقتداء للنور هنا يتكلم هوز: قد وفرنا الخطة ، وهو ما نعمل به لنثبت عليه ، وسنبداً بإزالة الزئبق .

ما صعّب عملية الإستئصال هو أن المادة لا يمكن رؤيتها بالعين المجردة . بدأت الشمس تميل في الأفق في حركة لا ترى ، ولا ما يعرقل طريقها سوى ضوء شاحب مسترسلاً من قرصها البرتقالي .

يتجه فؤاد إلى الفيلا عند سفح الجبل الذي يحمل المدينة ، تتوقف السيارة على رصيف الطريق ، يضيء الأفران ويدخل ، ودون قرع لأجراس يُسرّع نحوه

شيخ في العقد السادس في عباءة رمادية وشملة بيضاء ، يُضيء الظلمة بمصباح يحمله بيمنه ويفتح الباب الحديدي بيده ، فيرفع التحية للفؤاد ليدخل سيارته ولا يتوقف إلا على درج الفيلا ونزل من سيارته وتصافحا مع الحارس .
فؤاد : جئت لأرى المكان ، فيرد الحارس أنه ظنه ستسمن ؟ فيخبره أنه سيحضر إبتداءً من الغد .

يسيرا معا في طريق مبلط حتى يصلا إلى السلام ، هو ذا الباب الخارجي ينظر فؤاد يمنا وشمالا متجولا بنظره في البطاح الخضراء ، وقد بدأت الحياة تدب هنا وهناك ، فألف المكان روضة غناء أخرجت من الميت الحياة .
إتصلت الفيلا بمنظرة ألفت أنغامًا تباعدت عن ضجيج المدينة وأخذت بالفكر إلى الخيال ، النور والهدوء مأوى للراحة النفسية وخلوة للذات .
يتجه فؤاد إلى مكتبه أسفل السلام ، ويدخل ويجلس على كرسي المكتب ويرفع الهاتف إلى أذنه .

الحارس : بالضبط هنا تنقص أنت فقط .
يخرج فؤاد معية الحارس ويقف في البهو ينظر يمينا وشمالاً وفي كل الإتجاهات ويتجه ليتفقد غرف الفيلا ، يتلفت إليه الحارس : كما ترى كل شيء جاهز الافرشة ، الأثاث ، فلا تحسب حسابا لشيء ، يغلق فؤاد الباب بعدما ألقى نظرة خاطفة ويسأل الحارس عن المدة التي قضاها بالفيلا فيرد الحارس : ما قارب الشهر ، فيرد فؤاد إنه أول حارس ينصب بالمكان ، ينظر فؤاد إلى الأعلى حيث يتصل الطابق العلوي بالسفلي عن طريق أدراج عالية : كم يوجد من غرفة في الأعلى ، يرد أربعة غرف وصالة كبيرة (ثم وهو يتخلف ليترك المكان)
فؤاد : ألم يسأل عني أحد ؟ ، يرد الحارس : مرة واحدة سألت عنك الرئيس .

إشتد ظلام الليل ، وإنتشر دُجَاه على السفوح وعلى القمم وشاحًا متسللا لكل ركن في المعمورة ، ولم يُعد يُسمع إلا صوت السيارات وهي تصرخ وعجلاتها تنهم الأرض ، في العتمة الداكنة إهتدى فؤاد إلى الطريق بشعاع الأنوار المنبعثة من أعمدة الإنارة العمومية ، ونور الفرامل ، وهاهو يلتبس درب العودة ، طول الطريق وفكره مشغول ، أنفاس "أسيل" و"سُمُو" لا تزال بأنفاسه وصدى آخر كلمات التوديع تفرع طبلي أذنيه ، وأيديهما تلوحا ، هذا صوت أصغر البنات و هي تسأل عن يوم عودته .

تُخرج السيارة نحوى طريق ترابي ، تعلو وتتخفض ، وتغرق ببرك بقايا مياه المطر حواجز لا بد من التعثر بها ، بين تراحي السكنات وتسربت من نوافذها أشعة النور والعتمة تلبس أوراها .

وغير بعيد عن بيت والديه حيث لا تلاحظه الأعين كثيرا ، يظهر خيال امرأة تقف وسط الطريق تقترب السيارة من الخيال في إقتراب مجبر : من هذه ؟ تتوقف السيارة بمنتصف الطريق ، يُلقي فؤاد بنظرة من زجاج السيارة متأملا تمتد يد المرأة إلى وشاح وجهها وتزيله ، يبتسم الرجل ويزيح زجاج السيارة ليلتقيا وجهًا لوجه : هذه أنتِ؟

ترد حورية وقد إرتسمت مرسما المرتاح : كنت أنتظرك .

إستغرب الرجل وظهرت علامة الغرابة على عيونه : خير إنشاء الله ؟ ينزاح الوشاح عن شعر الفتاة ، غطي الكمين الطويلين يديها ، بان الحياء على كلماتها : لأشكرك على المال .

فؤاد : وقد ضحك حتى ظهرت نواجده : ألهذا السبب تلتحفين الظلام ، هذا خطر لذا إذهبي الآن ، يدخل السيد يمناه في مكتوبه ويخرج ورقة مالية ويناولها للفتاة

دون أن ينظر في قيمتها : خُذي ؟

لكن الفتاة تأبى ومع إبحاح الرجل تأخذها ، ويدير المقود مواصلا دربه موصيا لها بالإنصراف .

أما الفتاة فتتسمر مكانها تنظر ضوء السيارة وهو يشق الظلمة حتى لم يبق منه إلا خيط رفيع يشق الظلام ، حتى تدخل بالباب الكبير .

ورود غارقة في التأمل غائبة حتى تسمع صوت الجارة : حميد ، حميد تعالى إلى أين ؟ تُعاود الوشاح على شعرها وتسرع الخطى إلى غار شارع التعاسة الذي تسكنه تغنزل البعد في خطى .

كثر المتفرجون من الشرفات الشاهقة ، أناس إنتفخت بطونهم وشمخت هاماتهم حتى صرخت عيونهم بالطغيان والشدة غير مهتمة للبطون الجائعة ولا لأطفال ذات أنفس متعبة لا يعنيه ألم هذا الزمان ولا ضياع إنسان ، أعين تتفرج على الفتاة وهي بالطريق ، تعبر إلى ممر ضيق جدرانه من الطين والتبن وبابه من الزنك والرقّ الظلام يُلوّن ملامح النظر ، والعنمة تُعرقل السير واليقظة تتحتم على من يمرُّ بالمكان .

هي ذي أكواخ الطبقة الفقيرة جدًا على خط مستقيم لا نهاية له قريبة قد تضع حدًا لنهاية البؤس وعلّها تقي الصابر وتكفّ اليد ، رُفعت الجدران عن ضعف من كل الجوانب ، الضعف والقهر رابض بكل حيز ، وهم قيد الحياة مقيدين ، وأرواح غالبها التعب ، بسطاء وضعاف وبين الحين والآخر يلبسون أسلوب التحرر الذي عمّ عليهم بالخير .

يدخل فؤاد البيت فترفع الأم رأسها عن المطعوم كانت تتفقدته ، تضعه بجانب

الباب ، يباردها فؤاد : مساء الخير ترد عليه العلجة وتضيف تأخرت اليوم إننا

ننتظر ك ، يتقدم فؤاد متجها إلى سراج الماء بقرب باب المطبخ يدلي بمرجل و يرفع الماء ، اليوم ليس ككل يوم ، تعبت من الأعماق وشاقت نفسي ، ترد الأم لماذا لا تأخذ راحة ، كفاصلة وتبدأ ، يرد فؤاد وهو يبحث عن المنشفة فتناولها له من خيط الغسيل الراحة تأتي بعد .

يتجه الأخ والأخت نحو المطبخ منسجمان يسألها فؤاد عن باسم فترد أنه تعشّ و دخل لينام وعن عائشة تقول : يا عيني من الصباح وهي معي كانت تنتظر وصولك لكنها نامت ، يجلس إلى المائدة وأخذت العلجة تخدمه .

يسألها فؤاد عن عائشة وزواجها فتبتسم : لم يحن النصيب (وهي مستنبهة في الحقيقة هناك من يطلب يدها) وقالوا سيعودون بعد أيام ، يضع فؤاد الملعة الله يجيب الخير .

تزدحم الأفكار في رأسه وقد تشابكت والأقدار حتى نسجت رداء على أفعاله يتقنّ ويحاول كبح طفحان الهموم بسد مانع من الصبر ، اجتّر مرارة البعد تلاحظه العلجة : الغربية غولة وناسها وقودها والداري طيبب نفسه .

فؤاد لا يحب الضعف رغم تكلل روحه بالهموم وطارت بها النوارس تقهر السكينة ، وخلا إلى نفسه يتذكر بوجه محزون ، صوامت الأنا تناجي بُعد أولاده وتقطع الأميال والأشواط بل البحار والمسافات ويحط متاعه بوكر أخته بدرا أنار الأبصار وأرضا ألفها .

.....

مع شروق ضياء الصبح وبروز الشمس عن مخبئها رامية بخصالها على السفوح والبيوت وكل مكان ، وعلى الخضرة المبدعة للنظر ، تشدوا الدواب تتبع الدفء المفقود هذه الأيام الشتوية الأخيرة ، الربيع يتأني وهاهو يمسح عن الأرض دموع

الفاصل العابر عن المكان ، السواقي تنظمت بالمياه ، ورسمت طبيعة هادئة والأرض تنسمت وتوردت وتبسمت .

تهبُّ ورود من فراشها باكرا رامية بالغطاء إلى جانبها ، وكساء تأكلت خملتها و تبيست وتناقبت حتى سربت النور ، الكل ينام الصبية والبنات ، تنظر إليهم وتنفذ إلى الخارج وهي تعدل الوشاح وتثبته على شعرها المتمرد .

تنتعل نعل والدتها أول ما وجدته أمامها ، وقد تبرأت من التأنق هذا زمن وهاهي على قارعة الطريق العام ، تنشطت حركة الناس ، وهاهي تختبأ بجدار الحي مسرحة بنظرها إلى البعيد ، بغيتها طلب العون والحسنة من المارة ، ولكن خفقات قلبها ورجفات أصابع يدها الطرية الضعيفة خانتها ، فتضرست مكانها وحدّ الساعة لم يظهر أيُّ مانح ، عيناها تبحث عن مفقود ، فهل تراه؟ وتبتُّ نظرها غارقة في سيارة سوداء قد تمرُّ ، تربض بمكانها وتراجع متخذتا الجدار حماية لها ، وفجأة هاهي سيارته تعبر بقربها ، تخرج ورود عن مخبأها وتظهر إلى النور وهي تداعب صورة غمرت خيالها ، خيال غرّد به البلبل لترسم تمثالاً لنفسها ، تبرز في الطريق وقد أدركت تواريه حاملة أحلامها وعينان بدقة ترمي بالسهم ، الرجل كثير الإفتتان مفتول العضلات ، وملامح تجلب الناظرين ، و ساحة تشعُّ بياضان سواد عيناها قاتل وبريقهما ملهم .

كتبته الفتاة على صفحة من خياله مُنزلة كلّ أنواع الوصف ، الرجل العالم هو خصلة بين غيره ، نفسه تحب الطبيعة الصحيحة والحياة العلمية ودنياه حكاوي لغيره ، هاهي الشمس تبرز وتضيء النفوس ، ولكن هو الشمس والقمر إذا غُمت عن الوجود هذه توارت وهو بدا .

يتلاشى خيال الفتاة وترفع منزلة ، تعلو الهمة حتى تشدها "ديمان" من ثوبها

ورود..ورود ، أُمي تطلبك بالبيت ؟

.....

يدخل فؤاد المخبر ، ويلبس مئزره الأبيض ، وويسرع في إنهاء تجربة كان قد تخيلها ، أخذ كرسي وثبته أمام جهاز الكمبيوتر ، وقد تركز نظره على كاميرة التصوير المثبتة بجهاز الكمبيوتر ، وفي الخلف مثبت جهاز صوتي يثبت مكانه ويفتح جهاز الكمبيوتر وما إن يهْمُ بفتح الشفرة حتى يقرع الباب ترتجف يداها ويسرع بغلق الجهاز ، يخرج من الغرفة وهو يقول : مهلاً ..مهلاً أنا قادم ؟ بيرز رجل الأمن ويلقي عليه بالتحية ويبلغه أنّ الرئيس يريد حالاً في غرفة الاجتماعات ، يضع فؤاد معطفه على كتفيه ويعيد تفقد المكان ويخرج و يغلق خلفه ، في المكتب الكل حاضر ، يرفع رؤوم رأسه إلى رجل الأمن ويطلب منه غلق الباب ويأمره بالبقاء بقرب الباب حتى إذا طلبه وجده .

(يشبك رؤوم يد بيد) : منذ ربع ساعة وصلتنا أخبار سيئة ، رجل يبلغ الإثنين والثلاثون قد توفي .

سولجان : ماذا تريد أن تقول ؟

الرئيس : توفي بالزرنيق في المكان الذي نحن نقيم به وعليه التجارب .
يحجب الظلام الضياء عن العيون وقد ترك الجميع يطيل النظر برؤوم الذي يواصل : وقد طلبتكم للاجتماع كي لا تغفلوا عن شيء كما أنّي لا أريد التلحن في الحادثة لكن ما أريده هو السرعة في الحل أو القى من الخطر ، حتى لا تصدق الأقاويل وتلتحم بالوشاية فترد حقيقة وبتفادى حتى العفوية في الكلام .

يريد سولجان الكلام ثم يتوقف وقد ظهرت عليه علامات التحيز والدهشة ، لكن يتفاداه الرئيس يتفاداه ليواصل نصحه وإرشاده ، ليأتي على الحقيقة الواقعة مدلي

بدلوه المراد به تغيير مكان التجارب هنا يتكلم سولجان وهو الباحث المكلف بالبيئة ، يردُّ إليه الرئيس النظر : مابالك .

سولجان : آخر تجاربي تُظهر تسبب الزرنيق في مرض السرطان .
لهفة عيون المجتمعين على معرفة السبب أضاعتهم وهو يعرفون في يوم كربه
سولجان : هناك ثغرات كثيرة يجب سداها والحاجة تتطلب اليقظة .

رُبعي : وأيُّ أنواع السرطان ؟

سولجان : الجلدي ؟

تكلبت الألسن ورطبت المطية ، قلوب واجلة أنسها الخبر حالها والهول يسكن
عقر الدار ، يطلب الرئيس تقريراً خلال نصف ساعة عن الحدث لا تنسى به
ناسية ، وإحتمالات بكل ما سيحدثه هذا التلوث والحلول الممكنة وعينات حقيقية
كذلك ، تقرير يصلني لا يتفادى حاصل إلا ويُجلّيه ، يُصوّر ويجسد الحاصل .
ينصرف سولجان إلى مكتبه كما فعل البقية ، ويجلس مكلماً نفسه ك هيهات أن
يتحقق أمل بدون عمل ، ومن ذا الذي سيولد شعاع دفاعياً يحمي به نفسه وغيره
ويحمي أمة من مرض هو معضلة الزمان .

تشعبت أمراض الحياة ، وصرخ الزمان بما كلل النفس ، حاضر وقادم ، الموت
هاهنا حذاري تحقير الأشياء غبار قد يحمل سر من أسرار الموت ، علينا ترك
اليأس ، وتبا لمتسبب في موت البشر ولا مجال غير الإرادة ، وعلينا تكسير
القيود فإدفع بكفك وصخر ما بفكرك لتحلل المرجى .

يخرج سولجان من مكان الورم ، ويقف متأملاً متمعناً في الحفرة العميقة عمقا لا
حدود له أتربة وظلام قرفص ليأخذ عينة جديدة ، لعلها تبخر نتائج التجربة
السابقة رغم اليقين والقطع وهذه رغبة فقط بخياله ، فالخطر أشعر الجميع بالجدية

والأهمية ، وأعجز الصفات ومنح دلالة الحياة ، الحال رسم صورة مغايرة لما يحدث وما رسم من قبل .

يعود سولجان إلى مكتبه مقتدي ومهتدي بما عمله في الخفاء متوسماً هزّ جوانب اللجى ، يرفع سولجان التقرير إلى الرئيس الذي لم يبرح مكتبه ويجلس قبالة :
الرئيس : ألم تحس أنه قد يتغيّر ما افترضناه ؟

سولجان : كلُّ شيء ثابت ، بكل أسف نتائج المختبرات مطابقة للعينة الموجودة بالمكان ، يعيد رؤوم فهرسته مقلبا لأوراق بين يديه وقد تنبه لما قيل وأدرك الحال العجب ليس بالعجيب والواقع هو المتحدث كئناً نَعمد إلى التغيير لكن الواقع هو أماننا ، والجرح لن يموت بل هو حي ، وبالجسم يحيا رافضا الإستسلام .
الرئيس : وما العمل الآن ؟

سولجان سنقوم بمحاولات أخرى ؟ وهو يهئم بمغادرة المكان : سأطلعك بأخر النتائج في وقتها .

الباحث كله أمل وقد أظهر الزهر الأبيض من جسم ميت ، الجميع يدرك قوة ورواسي المهمة التي مكلف بها ، ورغبة المجتمع في التكيف مع مستجدات العصر والتفاعل مع التطور كلُّ هذا دفع بالسواعد البشرية إلى كشف معارف أولية وكشف الخفايا العلمية ، وهذا لن يكون له إرتقاء إلا بكسب الصفة العلمية .
جهود متواصلة متصلة فلا فرق بين هذا الباحث والآخر إلا بالجهد ، لذا لقد شدّد الرئيس على أن تكون هناك صلة بكل الممارسات ، والإبداعات العلمية منطلقها المواد الأولية في مختلف البحوث ولا تطور لعلم بقطع صلة بما يُطوره ويضمن له الإستمرارية وبين التناقض والتجاذب .

كما شجّع الرئيس كثيراً على الإستقرار والإستقرار والبعد عن التهور لأنّه عائق

لكل نشاط فكري ، وكل ما يصاحب التغيرات النفسية والصدمات العنيفة لأنها تعيق المهيلة الإنسانية ، وعلى الباحث التزود بطاقة إضافية ونشاط متجدد وعليه سدّ الثغرة أمام ما يعيق ملكة الإنسان مشيدا بملكاتهم وقدرتهم في بلوغ كل ما يريدون بلوغه .

وهم الصورة الحية والمتفردون بصفات لا توجد عند غيرهم تعرف بالروح العلمية وكذا حب الإطلاع والصبر وعدم التسرع والتواضع والإبتعاد عن كل ما يبعث على الغرور .

وهناك عقلية العالم المتشعبة بالإيمان والحتمية العلمية لا مصادفة وبدون تلقائية إذ كل شيء يجري بنظام وبنظام .

يتجه صولجان إلى مخبر " هوز " لكنه لم يجده بمكتبه وإتجه إلى مكتب ربيعي فوجده هناك يأخذ مكانه بينهم سولجان : سبحان الله هناك منى يتغذى في بيته ويمسي عشاءا للديدان ، وهذا ما حدث مع من مات بالمكان وفي المساء هو بالآخرة .

هوز : ربما بحوثنا هي التي تسير ببطء ، فلا علاج يذكر لحد الساعة ؟
سولجان : أو ربما هي بحوثي وعلى الرغم من كل ما كان ، يمكن إبعاد النفاية عن المكان .

العلاج تحت يد الباحث ، وهذا ما هو بصدد كشفه مع الساعات القادمة ، هنا يحاول " ربيعي " أخذ الكلام : لقد قرأت هذا الصباح من سنة 2015 على الجريدة الكندية " دايلي ميرور " أنّ الولايات المتحدة الأمريكية تتصدر قائمة الدول الإنتاجية على صعيد البحث العلمي ، فخلال أربع سنوات الأخيرة أنتجت 35% من مجموع البحوث والأبحاث العالمية تليها بريطانيا كمرتبة ثانية ب

9,43% تليها اليابان ب 9,28% وألمانيا ب 8,76% ثم فرنسا ب 6,39% وكندا ب 4,58% وأخيرًا إيطاليا ب 4,05%

يقاطعه هوز : بالفعل كنت مع فؤاد في المركز العلمي للبحث الكندي وكان لنا نصيب في هذا الجانب .

ربعي : هذا في أوروبا ، يا هل ترى أين الجزائر من كل هذا ؟

.....

هذا اليوم خرج فؤاد مبكرا من المركز ، وإتجه إلى الفيلا يريد الإبتعاد عن الكلام ، ومباشرة بعد وصوله ، ينصرف إلى غرفة بالطابق العلوي ، بها من الأثاث والأفرشة ، فظهر التخت كعش حمام ، وهو كذلك يرتفع الجرس جواله يبحث عنه بيده ويرفعه إلى أذنه وهو ملقي بحموله على السرير ودون أن يرى الرقم يرد عليه الصوت النسوي : هذا أنا كيف حالك ؟

ينتبه إليها فؤاد فيسرع : من نيلي ، أين أنت ، كيف حال البنات ، ألم تفكري بعد .

نيلي : لا يزال مقترحك تحت الدراسة ؟ يسألها فؤاد : متى ؟ لقد إشتقت إليكم ؟ يغلق فؤاد الجوال وينظر إلى ساعة يده ، ويحمل حموله ويخرج من الغرفة و الفيلا ، يمتطي السيارة التي تسير طريقها نحو طريق العتمة ، ينظر يمينا وشمالا ويستقر نظره على لافتة وردية كبيرة كتب عليها "سوبر ماركت الحاج شريف " وبجانبه بقالة " العم عيسى " .

لا تزال عجلات السيارة متأنية يرد بالتحية على من يلقي عليه بالسلام ، الناس متفاوتين بالطبيعة والإجتماع ومن الصعب أن تجعل المتقدم كالمتخلف ، والعامل مثل العاطل عن العمل وهكذا فالناس مالكين على هذه الأرض .

وهنا تلتقي النفوس بالأركان المظلمة ، وهنا يظهر الفقر والعجز ، ولا الألفاظ تعوض الدلالة ، والأشكال البشرية تجمعت عند الأرضفة علّ القلوب الرحيمة تطرح معروفًا .

يلتفت فؤاد بكل إتجاه كأنه يبحث عن شيء ، هنا يجتمع الفقراء ، ينظر وجهها الصغير الجميل وشفاهها الرقيقة ، علّ به جروح أثقلته ، لكن كلّ شيء يتغيّر لحظة رؤيتها بالركن يشدّ بقلبه نحوها ، وتلاحظه من بعيد يتجه نحوها ، تحسُّ بحركات يدها الخفيفة ، بداخلها تشنجات ، تقترب السيارة من مكانها وهي تقف وحيدة ، تنتبه له ، ويعج لسانها بكلام صامت يسلم عليها فترد عليه في إستحياء تحيته لها شنت الأذن ، وجعلتها تركض وأفكارها تفيض بذهنها ، والكثير منها إختفى وراء صوتها ، مصابها أعجزها ، وهاهو مرسل آخر يأتي ، تجاوزت تخميناتها جاوزت الحدود ، تعلو وتنخفض مع النسيمات ، كلنا يحمل أحلام تكبر معه حتى وإن كنا مواقعنا صغار ، ولكن عالم " ورود" يفوق الخيال طفلة مستقبلها مجهول ، بقلبها صور مشرقة تحت ثوب الخزي تتمنى ثوب العز ، لكن الإنفعال الذي بداخلنا والمشاعر حرة وهي أساس جونا الخاص يأخذها التفكير إلى بعيد حتى تدخل بيتها .

يدخل فؤاد بيته والليل أناخ مناخه ، فأبطأ روح التسامر وملك نفسه ، وعلى الرغم مما كانت تتمناه العلجة إلا أنها لم تكتم إستغرابها من إندماج وتقاؤل أخيها وكم كانت متلائمة أخلاقه وطبيعته وتجاذبه .

يأوي فؤاد إلى فراشه وقد مال الليل إلى شطره الثاني مرهق متعب ، وضع قدم على آخر حتى ظهرت أخمص قدميه ، يأخذ مذكرته ويستند على الوسادة ، يثبت على قلب أحمر ، يتيه به ويغوص في ذكرياته ، يغفو ليظهر حلمه ، كل له حياته

الخاصة ، له ماض وحاضر ، وقد أخذ قلب نيلي منه قلبه ، وكلما نسيتها العين فالقلب يحملها في شرايينه ، وقد قالت له يوما أنه فارس أحلامها ، وأنها تتمناه دائما إلى جانبها وبالفعل كنت لها الرفيق والحبيب .

يدير رأسه ذات اليمين يريد دحض ذكراه : لو كنت حبيبها لما هجرتني اليوم ، و لو يوما أحببتني لما تركتني .

لقد خطأت في حقي ، حتى قلبي ظلمته عندما إحتفظت ببناتي معها ، وأماتت بهما مشاعر الحب ، ولا يزال يعاند جفناه اللتا أخذا في الفتور ، وأمسى إجلائهما صعب ، ولكن بدون جدوى ، وتغادره الروح إلى بارئها في سبات عميق أنساه إطفاء عاكس النور .

تدق الساعة السابعة برنات منسجمة ، وتسير عقاربها نحو ساعة أخرى وفؤاد لم ينهض بعد ، ولكن العلجة إستبطأته ، حتى دخل والنعاس حارس على عيونه وقد تنبه إلى تأخره ، ينصرف إلى المغسل ويعود إلى غرفته حتى يسمع جواله وبمجرد ما سمعها عرف صوتها ..نيلي ، يستغرق في الحديث معها حتى تشرق ثغراته بإبتسامة عريضة ، أصحيح ما تقولينه ؟ ستبعثي البنات متى ؟ لا تلعبى بالنار معي سأنتظر ؟

وأخيرا رق قلبها ، وهاهو آخر الشوق والعذاب معه ، يرتدي سرواله وقميصه ويضع النمرة على عنقه وهو على عتبة الباب تستوقفه العلجة : فؤاد حاول العودة مبكرا ، وهاهو بالطريق يعبر الممر الضيق إلى أوسعه ، يسرح النظر ثم يركزه هل أنت ؟ ترد "ورود " أنها هي ..يبتسم في وجهها ويقول لها أنها رائعة الجمال اليوم ، أفقدها كلامه صوابها وأخرصها حيننا .

أنت من ترى كل شيء جميل ، يظهر على نظرها لوا عج الهوى بعيدة عن

الشبيقة ، ينظر من حوله ، ينظر من حوله ، الكل في مكانه ، يقترب من زجاج نافذة السيارة : نلتقي هذا المساء في الساعة السابعة في ركنك المعتاد بالعممة وينصرف ، تتسارع دقائق قلب الفتاة وقد سمعت أغرب الكلام إنه حلم من أحلام اليقظة ، العمر بها يطير كالحمامة ، وقد خرجت من الألم ، ولكنه عالم ومنتزج ثم تمحي أفكارها ، كل واحد له ماض وله ذكريات وهو هنا الآن وربما إستقر ولا بد أن قلبه نسي من هناك وغار في شارع العممة ، لا تزال الفتاة العاشقة تكلم نفسها لقد شحنها ومنح قلبها نبض الحب وتبسم ومسح دموعها ، وإنتهى بها الضجر وأنهى بها الحزن المدخر .

لو كانت الأوروبية حبيبته لما هان عليها بيعه وأي حب هذا امرأة من الغرب ماذا تعرف عن الحب العربي .

تقف ورود أمام المرأة تقيس من اللباس أجمله ، فستان أبيض أهدته لها إحدى قريباتها ، إرتدت الفستان وتراوحت فيه فبدت في كامل أناقتها ، إسترسل أسفل الركبتين بقليل ، به فتحة اليمنى تكشف عن تنورة ، الفستان أظهر مفاتها وبنات أنوثتها رفعت الوشاح عن شعرها ، وإنطلقت خصلاتها متحررة متموجة وظهرت ملامح وجهها في مقابيس تلمست قلب الناظر .

دعبت ملامحها ببعض الألوان المزركشة ، أحمر شفاه خفيف ووردي على الوجنتين ، زادتها شامة جمالا تمركزت أسفل الذقن ، بدت الفتاة سفيرة الحب وجه ناصع البياض وحياء مكتمل ، صورة بدون صوت وإن أفلست في عالم المال علت في عالم الجمال .

يدخل فؤاد إلى المركز ويتجه بخطى سريعة مستعجلة إلى مكتبه ، يضع نظاراته على الطاولة يرتدي منزره ويرفع نظاراته مرة ثانية إلى عيونه ، يدق الباب

يفتح فيجده الرئيس : تفضل ؟

يسأله الرئيس عن سر الجدية والوقت المبكر فيرد فؤاد أنه يوم عادي ، يرد عنه الرئيس أنه مطلوب في الوكالة الفضائية في حدود الحادية عشر صباحًا ، ينظر ساعته بعد ساعتين من الآن ، ويضيف وكيف حال النتائج عندك ؟ فؤاد كل يوم يوجد الجديد ، سأطلعك عن التقرير في حينه ، أما عن بحوث الزراعة الفضائية فكل بحث في حينه .

الرئيس : نحن نواجه منافسة عالمية شرسة جدًا لذا يجب الحذر (وهو يضع يده على كتف مرافقه) أتركك الآن ، لا تنسى الميعاد .
ينصرف فؤاد إلى جهاز الكمبيوتر ، ويأخذ ورقة ملصقة بقلم بالجهاز ويثبت نظاراته على عيونه ، ينظر إلى الباب الزجاجي إذا أحكم غلقه يدقق النظر في الجهاز ، ويضع السماعات بأذنيه يتصنت الذبذبات الصوتية ومدى تغير الحدث الرجل العالم في إضطرابه ، ينتظر النتائج ، ويضغط على الأزرار يستمع وأخيرًا .. أف .. ينزع السماعة عن مسمعيه ، ويضغط بإبهامه وسبابته اليمنى ويقيد كل النتائج المتحصل عليها .

وبينما هو كذلك يسرح النظر في المجهول يحاكي داخله : ياالله هي الدنيا ، أسرار ومشاورير ، (ويبتسم) لا تزال النتائج بعيدة .

يسترخي ويأخذ في التذكر بعد يومين تصل البنات وربما معهما نبلي ، ولكن يتذكر ورود كالشمعة ، فتاة مملوءة بالحياة ، فجأة يتقطن للموعد وينظر إلى ساعة الحائط ، ياالله لم يبق على الموعد إلا خمسة دقائق .

.....

مع منتصف النهار وفور إنتهاء الصبية من الغذاء ، تستعجل الفتاة إلى مرآت

تهشمت جوانبها وإمتدت على الطول ، تلبس فستانها الأبيض وتتبرج هنا ومن هناك حتى غيرت ملمحها وجهرت حيويتها ، تدخل الأم في خطوات متأنية لتجد "حورية" أمامها :

خير إنشاء الله هل أنت ذاهبة إلى عرس ؟ تنزع "ورود" الوشاح عن شعرها وترد بالنفي وأنها ملت الكأبة ، ترد عليها الأم أن هذا أفضل .
إنتهت ساعات عمل فؤاد وخرج مسرعا إلى هناك ، الليل في أوله ، والظلام يكسو الأماكن وخرجت مع طالب حاجة ، وإتجه هو نحو المكان ، حتى لمحها من بعيد تقترش ركنا مظلما ، وما إن تسمع أزيز العجلات حتى تنتفض عن مكانها ، تنزع الوشاح عن شعرها ، صامتا على ضوء القمر .
يناديه لتركب إلى جانبه ، مانعت الفتاة لكن فؤاد يطمئنها أنهما لن يذهبا بعيدا لكن الفتاة تخشى النسوة والمكان ، لكن فؤاد يعود ويطمئنها أنهما سيتجنبنا كل الناس ، تقتنع الفتاة وتصعد وتنطلق السيارة مخترقة للظلام في الصمت تنظر أغصان الشجر والرياح تداعبها قطط وكلاب تبكي ، على الأرض الزراعية تتوقف السيارة الفراغ والصمت هنا ، تنظر الفتاة مخرسة ، ينظر فؤاد إلى عيونها اللتان أمستا كالدهن في الحساء البارد بان أثرهما ، ينقلب فؤاد يريد طريقا معبدا . أسرارها تخبؤها عيونها وطوى عنهما الجفون فلا قارئ لهما يوقف السيارة قليلا : كنت أشعر بالضجر ، يتلفت إليها : أنت رائعة ؟ تخرس الفتاة مكانها فلا أفكار لديها ولا تعبير عن كلام ، ولا تقوى على إنتزاع الحجاب ويقاطع صمتها : شفتيك وعيناك ووجهك أنت أجمل مما توقعتك ، يطأطئ رأسه منذ رأيتك لأول مرة لم تغادر صورتك خيالي (يداعب أصابعه) لقد سكنت اللاشعور ، هذه الزخات حرّكت مشاعر الفتاة وأصهرتها في نفسها حتى قالت

أول كلمة : أنت فؤاد الجزائري تاع زمان هكذا قالت أمي ؟

فؤاد : متبسما والآن أنا مسؤول ، جنئت لأقوم بواجبي .

يحاول فؤاد تقريب الفتاة من وجهة نظره بتبسيط الكلام ، فالجزائر بلده و
وولد بها تسأله الفتاة عن عمله ، فيرد أنه باحث ، يقرب فؤاد يده من يدها حتى
يضمها وتدفع بهما : أحبك معي ، دعاها فانسجمت ، وأنارت شموع حياتها
أمني ورغبة تنطُّ حواليتها ، ترد الفتاة أنها كانت تحلم برجل وأنها تتمناه
إنكسرت نحوه حتى تمسحت المساحيق عن وجنتيها وتحللت وإنصهرت به
وترشفا من الهوى أمتعته وعاشا الهيام .

عاد فؤاد إلى بيته فوجد الجميع ينتظره تحت كرمة العنب التي عبقته براعمها
أريج عليل ، ينظم فؤاد عليهم وعلامات الراحة بادية على وجهه ، وأشرفت
إبتسامة عن ثغريه فعيرت ملامحه .

العلجة : اليوم تحدثت معي العلجة على الهاتف الأرضي ؟ لكن فؤاد كمن لا يهتم

والبنات ألم تتكلم إحداهما ن فترد بلا ؟

فؤاد : هو اليوم الأول من العطلة .

العلجة : ربما سيأتون بعد الغد ؟

إستغرب نبلي من فعل نبلي ، ولكن الأم تبرر فعلها أنها أرادت تبليغها وأن ذلك
أفضل لكي يزينوا المكان .

تتلقت العلجة إلى أخيها صامته وقد أدركت عدم التوافق الذي يعيشه وزوجته
ينظر باسم وعائشة إلى عيون خالهما الذي طمأنهم ببسمة .

فؤاد : نبلي تعارض عودتي للجزائر ، ولا تريد هي دخولها .

يشمل القلق الأم والكثير من الإنزعاج ، وحنو ورأفة بأخيها : امرأة بلا قلب ألا

تدرك أنك والد ولك إلتزامات عمليّة ، يقاطعها : تدرك كل ذلك لكن .. وبتذمر
واضح افقده الصواب وجعله يتكلم :

لا أريد التواجه مع أفكارها ولها حرية الإختيار ، ولا أريد إرغامها على شيء
ترد العلجة : ألسنت أنت من إخترتها ، وقلت أنها من أصول عربية جزائرية ؟
يقاطعها : نعم كل هذا صحيح ، لكن بعد النجاح الذي حققته في بحوثها تغيرت
نظرتها .

يغير باسم سيول الحديث وحفر خندق آخر ويستغرق مع خاله في ضحك تمازحوا
جميعهم به وراحت العلجة تحكي حكاوي الصغر ، ولكن عائشة تطلب من خالها
أن يحكي لهم عن عمله ، رد فؤاد أن عمله صعب ، وأنه يعتمد على الإجتهد و
البحث والصبر والإستمرار .

إشتملت القلوب رعدة مطمئنة ، وحجبت عنهم الأحزان وتقاسم من بالمكان
الفرحة والأمان .

.....

.....

.....

تمر الساعات متجنحة ومتأنية ، إنه فصل الربيع والنسيم البارد يسهل الأوقات
الجو يتنفس ويبخ عطراً واعدًا بالأفضل .

تجلس ورود مع والدتها والساحة تحتضن الأطفال، لا غلة لكلام ، الشكوك كثيرة
بها وتضرست بها أنيابها ، لا حيلة لها تنظر إليها الوالدة : لا تخرجي مع العليل
فالمكان لا يساعدك ؟

ورود: لقد وجدت عملاً ؟ تسألها عيون الأم فترد في دكان عمي عيسى إنه يبحث
عن مساعد له فقبلت . تجذب إحدى أخويها إلى حضنها :

إنّها مفاجأة ، ترد الأم أن الرجال لا تأمن لهم جهة كالماء في الغربال ، لنا وعلينا

تنزع الفتاة من مستها شحنات كهربائية ، الضجة خلف كلامها أمامها إختوتها يلعبون ، سدت مسمعيها عن الكلام ، الرجل كالماء بالغربال كلام الأم شاف هل هو واحد منهم ؟، وهل تترك نفسها تأخذ نصيب من الحياة وأنها عشبة بالأرض فلماذا لا تترك لنفسها الإختيار .

كلام الأم أبصرها ، وحدد سلوك الإنسان ، العجوز الرابضة بالمكان هدي، فلا أحلام ولا أفكار تمنح الأمان ، وقد ينجو من لم يأمن الغد ، والإنسان مثل الدمية تترك الفتاة الجميع وتساعف رجليها تخرج من البيت وتسير على الرصيف وحيدة ، تنظر إلى كل مكان ، الناس غادية وأتية ، أهالي الحي يعرفون ورود الفقيرة حتى صديقتها زوليخة التي تحتضن أكياسها عائدة من مشوارها اليومي لا تهتم لوجودها ، فتنجبتها وتمر ، هو زمان لا غال فيه ، فكيف برجل عالم يحتضنها وينير شمعة أنوثتها حتى عيناها راضية .

يدخل فؤاد مكتبه ويضع نظاراته الخاصة عن عيونه ، يلاحظ ورقة على الطاولة ، يفتحها ، إنها مسودته عن النتائج الماضية ، ينظر ويتحسس لا بد أن هناك من دخل ، أو تسلل : كيف فاتني تمزيقها .

مهم جدا إخفاء التجارب ونتائجها ، وفؤاد لم ينهي تجاربه بعد ، كل شيء ليس آمن فلا يمكن له أن يسلم نتائجه لغيره .

يأخذ المفاتيح من جيبه ويقترّب من خزينته يزيح صورة الحائط ويشكل الأرقام السريّة ويخرج بعض الأوراق ويلقي عليها نظرة .

يعود إلى مجلسه ، وهو يراهن على دخول أحد إلى مكتبه ، ولا أحد في مخيلته غردت فيه الأفكار ، وراحت تتعدى الحدود ، يجب عليه الإسراع في طرح النتائج لأنّه أمان له من شرك مجرم جرى قبله إلى النتائج .

فكّر فؤاد في إخبار الرئيس لكنه تراجع ففكره يناقضه ، ومن ذا يضمن العاصي ؟
يقطع على نفسه التفكير وسيول جارية وشعور يترجم الغوص يحاكي السلام
الطافح وشمخ وثبت .

صوت التفجيرات تعلق وتزداد مدوية ، تُسمع البعيد وتتعدى محورها ، إنها حقول
التجارب للقضاء على الزرنيق ، يجلس فؤاد إلى بحوثه ، يضغط على أزرار
مختلفة ، تضطرب عضلات يده ، وتتسارع دقائق قلبه حتى ينتفض عن نتائج
لنهاية تجرب قام بها ، تثبت لا حركة ، حتى همسه لا يسمع ، يتفقد التجربة و
يتسمع ..ياالله ..ما أسمع ..نقشعت الغمامة ، إنه صوت يقارب لصوت النسوة
ما كان مستحيل هو واقع ، وهي النتيجة التي عزم مبلغها وإنبلج نورها وضياها
يقفز فؤاد عن مكانه يتفطن لما حوله ويتراجع مركزا في عمله .

مباشرة بعد إنقضاء ساعات العمل ، يمضي فؤاد إلى راحته ، وهاهو بفيلته
يوصي الحاجب بعدم إطلاع أحد بوجوده .

وبينما هو مرتاح على سريره يرنُ جَوَّاله ودون أن يفتح عيونه ، يحمله يسمع
صوت نيلي فيعتدل في مجلسه ، يسألها عن حالها وعن سبب عزوفها عن القдом
هي والبنات ، لكن أعصاب فؤاد تكهربت وبطارياته نفذت ، يسخط عن كل من
حوله ، فلقد اقرت على عدم الحضور ، ولا يقدر على إكمال بقية الكلام فهو
مشلول خاطر ، ما هذا وكأنه نذير الشؤم ، تنسد أفكاره ، يشعر بحاجة للسير و
تغيير المكان ، يلبس وينتعل ويمر كالسهم .

بداخلهما حياة وهاهي اليوم تطلب الطلاق ، يمر كالبرق على الحارس ولا يهتم
لوجوده ، يركب سيارته ويسير ، هو في اللاوعي ، يصل باب العتمة بعدما ترك
شارع التعاسة غير بعيد عنه ، الغروب في بدايته وبمكان منفرد منزوي تجلس

ورود تنتظره ، فؤاد : جئت كما وعدتك ، قلبي هو الذي أحبك ، وهرول إلى مكانك ، تجلس الفتاة إلى جانبه ، فتحكي له عن وجوده إلى جانبها ، وأن النقود التي تأخذها منه تسد حاجة عائلتها ، فيرد فؤاد أنه نسي الدنيا وأثاها ، وأن لا ملاذ له إلا مكانها ، كما أنه لم يتصور ما هو عليه معها ، كما وعدّها بالزواج إذا ما جاءت الفرصة .

"ورود" أنت عزايا ، لقد غيرت حياتي ، قلبي معك كل حين ، يترقب حركاتها مغتبطاً يقرأ أسرار عيونها وكل ما تقع عليه عيونه ، يلتصق الجسدان فيدق قلبها لقاء قلبه وفصح وجهها بألف عبرة ، يسموا إلى السماء ، وقد كانت فوق أجمة (كومة) تلمس خدودها بأصابعه فتناولتها بشفاهاها بقبلة يضجُّ وقعها ، يتلمس فتحة بأعلى ثوبها وأدنى رقبتها ، يفتحه فيسري كفه بارداً على جسدها ، تتقهقر حذاه وهي تصدر ما ألهمها أحبك فيجتثوا عليها مطبقاً قبلة على شفاتها في لذة ترهو بينابيع أدمياتها وتتناغى في أفانين كطير تتراقص مهجته على أعذب نغم ، هجرت مخدعها ومالت عليه وإنحلت بين ذراعيه ، فحواها يعتصر ريق شفاتها ، لا مست برودة صدره فرفعت عيونها من بين خصلات شعرها وقد سلسب وشاحها عن إسوداد شعرها .

يمضي الوقت مسرعاً والحياة تحتضن العاشقان بقوة لتكسر النسومات المتدفقة وتصهرهما في حلاوة الكلام .

تجذب ورود يده اليمنى تبغي معرفة الوقت ، يالله إنها الثامنة ونصف يجب أن أعاود البيت .

يدخل فؤاد بيته فيجد العلجة تحتضن المذياع ، أما عائشة فقد تأنقت ، وظهرت في بهاء وصفاء تُظهر مفاتنها .

فؤاد : لقد هاتفنتني نبلي اليوم ..فتسأله العلجة : ماذا عن البنات ؟ يرد أن نبلي لا تريد دخول الجزائر ، كما أنها لا تتمنى ذلك لبناتها .

ترد العلجة أن القاوري قاوري .

يقتررب الأولاد من خالهما بينما يقول : ياليتها تسمع نداء الدم .

يرد باسم أن كل شيء ظاهر منذ البداية وإذا لم تدخل وحدها فلن تأت وحدها

دقق النظر في الأشياء فالحقيقة مضبوطة يرد فؤاد أنه من رأيه .

تنظر العلجة إلى إبنتها : ماذا يافؤاد ألم ترى تغييراً على عائشة ؟

يدير الرجل وجهه نحوها وقد أدرك الفرق ، تضيف العلجة : لقد خطبت اليوم

فؤاد : ومتى الزواج ، ترد الام بعد أيام قلائل .

لا يمضي من الوقت الكثير ، ويدخل فؤاد غرفته ليرتاح ، وقد ظهر جسده نحيفاً

وبرأسه جحافل الأفكار ، وعنفوان وصمود ، في مأزق لكنه قوي فهو مشتت

بين زوجة وأولاد وبحوث وأفكار مقنعة ، أولاد لا يريدون العودة إلى موطن

والدهم ، ربما الأفكار التي جمعت حول العرب وربما الهمجية والتربية الغربية

الهمجية ضد العرب ؟ أو أحزاب الشيطان المعوقة للتواصل مع العرب .

32 سنة وهو في ديار الغرب ولم يعني له ذلك سوى المصلحة ، لكن نبلي فعلت

مالم يقدر على فعله وهذا هو حاله .

تمر الأيام وتزفُّ عائشة إلى بيت زوجها ، ويسير الحال في حاله بما يرضى

ولا يرضى له ، فللعاشق غناه وللمجروح وكره ، والتأني يشفي النفس ، وإمتلاً

القلب بالهوى ، وبعد ليل مظلم ، وبعيد مستحيل كانت حورية مع خيالها ، يكفي

ما عشناه من ماض ودع الألام تنام ، تشرئب مع المارة ، وأخيرا ظفرت عمًا

تبحث ، تمر سيارة مرسيدس السوداء تخترق الخلاء ، ويقلب فؤاد النظر نحو

ركنها ، فتراجع في سرعة قاهرة على الخلف ، وما إن تطمئن لخلو الطريق حتى تخرج من مربضها : يا لله الوقت لا يزال مبكرا ، هل أنطلق أم أنتظر لكن ضميرها يلحُّ عليها بالمضي في سكون وطرأوة ، وتدفع الحرمان ، تنتفض الفتاة من مكانها مسرعة نحو بيت "بكير" حتى يلمحها البقال الذي ناداها فتحاشته بحجة لها حاجة ، يرد عليها بنظرة غريبة .

تتصرف الفتاة إلى بيت الخالة تحوطها المشاعر لا يستطير شاعر التعبير عنها مزيج من العاطفة الهادئة وصوت الروح الخافت ، تدخل إلى الساحة الكبيرة ورود : زمان لم أتي إلى هنا منذ زواج عائشة ، تجد العلجة أمامها والتي تسلم عليها وتسحبها إلى الداخل وورود على حياء ، تجلس على أريكة متكمشة ، ترفض الضيافة وأن البقال عمي عيسى ينتظرها ، طبعت على حركات الفتاة الصبيانية والخفة والجمال حتى كسرت الحواجز ، وجلست إليها العلجة تتمنى معرفة سبب حضورها ، ورجات أصابع يدها يصرخ بها ، تتملى العلجة بالفتاة مستعرضة قوامها ، في فستانها الوردية تريد ورود الخروج عن المألوف هل عائشة هنا ؟

ترد عليها المرأة بلا ، وأنها ذهبت إلى بيت زوجها حتى باسم ليس هنا ، تضيف الفتاة لقد علمت أنّ أخوك هنا فترد أنه فؤاد لقد عاد من الغربية وأنه وحيد ، لا شيء لديه غير الوحدة والعمل أما عن عودته إلى الغربية فلا أظن شمل اليأس العلجة وكسا نبراتها ، تنظر إليها الفتاة ، وقد نالت ما تريد ، ففؤاد لن يغادر وهو قابع ، رقص قلبها فرحًا ، وهفهف ، وسمعت ما بداخلها ، لم تخف خافية كل شيء ظاهر ، وإن صحَّ ما تقول فلن يكون لقاءنا مجرد كلام ، وعن قريب ستجد لنفسها مكان بالبيت .

يجلس فؤاد إلى مكتبه ، يتابع آخر النتائج العلمية غارقا في التفكير ، كيف له بتسليم النتائج بضمان ومن غير سرقة ، وإن كان تاريخ التسليم لم يحن فما السبيل إلى ذلك ، يجوب أركان المخبر في خفة وحركية هزت جذعه ، نظاراته عيونه أسهبت النظر ، لن يقبل بمنطق الضعيف ، لقد وجد طريقه ، وإهتدى إلى صديقه هوز ، فرغم إختلاف النظر إلا أن العمل يجمعهما ، وعمّ قليل سيزول الشك يهاتف صديقه هوز يستقدمه في شيء طارق ، والذي يحضر بسرعة : لقد حيرتني فيرد فؤاد أن الأمر مهم .

يقابل هوز فؤاد في مجلسه بانتباه ، لقد طلبتك لشيء مهم فيستعجله هوز . فؤاد : لقد إنتهت إكتشافاتي يقاطعه ألف مبروك ، يرد فؤاد أن هذا ما إستدعيتك لأجله في الواقع أريد منك الوعد بالكتم والسرية ثم أن توفي الأمانة ، هوز : هذا مما لا شك فيه ، يرد فؤاد أنه منذ أيام إكتشفت أن عيوننا تلاحقني وحتى في المكتب ، وهذا بعد إنتهاء الإكتشافات ومن خوفي على تسرب النتائج إلى أيدي غير أمنة أريد أن تكون لديك نسخة كحماية في حالة ما ...، يندهش هوز من كلام صديقه العالم فيقترح عليه أن يمحي المعلومات من الوثائق ، وأن يحفظها بفكره حتى تسلم ، يبتسم فؤاد ويقول أنها نتائج ملموسة ولا يمكن ذلك . يرد هوز أن المبحث هو كشف لعلاج التبغ لمرض السرطان ، وتجربة للزراعة في المريخ بخلاف ما يضمنه من حسابات وإحصاءات ، وبعد أخذ ورد يوافق هوز على أخذ كشف العالم إلى حين يطلبه ، يرتاح فؤاد وينصهر الحديد بداخله وتخلو الشكوك وتّمس هواجسه لا شيء .

يرفع فؤاد عيوننه نحو ساعة الحائط ، يجمع أوراقه ووثائقه وما إن يهيم بالإنصراف حتى يرن هاتف المكتب ، يجده الرئيس والذي يخبره أن مندوب

شركة "كيواكس إل " قد هاتفه ، فيخبره فؤاد أنه بارم لعقد معها في شأن دفعيتين من أجهزة الكمبيوتر ، يرد الرئيس أنّ الدفعة قدمت اليوم بدل يوم الغد ، يرتاح فؤاد ويضع السماعة ، يكتب تقريرًا يوصله إلى الرئيس كالتزام من شركة الحاسوب ، يتفقد كل شيء حوله ، يفتح الباب ويغلقه ، ينسحب إلى مكتب الرئيس في الردهة في رواق المكاتب ، يحس بقدمان تتعقبانه أو عيون ترقبه ، يلتفت يلف لا شيء على الإطلاق .

فؤاد : لا حول ولا قوة إلا بالله ن ويواصل طريقه ، الإنسان في النهار ويتخيل . يسرع فؤاد نحو الموعد .

ولكن خلفه يتقد الرجل المثلث كله أسود ، ويهوى على باب مكتب فؤاد ومخبره يُخرج قبضة المفاتيح ويحاول مع الأول لا جدوى والثاني كذلك فالثالث فالرابع هذا هو ، يفتح ويدخل ، لم يظهر من عرائض الرجل إلا العيون السود الثاقبة ينظر بكل إتجاه قوي طويل مكتمل البناء ، يكمل مهمته ويتسلل عائدا دون أن يترك أحدًا يحس بوجوده ، والذين تركوا الحراسة إلى حين حتى خلى له السبيل وأتم فعله .

.....

مسافة الطريق يبلغ فؤاد زقاق اللقاء ، الشمس في الأفق ، وأشعتها مشتعلة شمعة حمراء وهاهي في ثوبها الأحمر الذي سرّب مفانتها ونحى عنها الغبن ، تطير مداعبة للهوى ، بها حُبُّ للقاء ، تمتطي السيارة ، يخبرها فؤاد أنّ قوامها و سكونها فانتان وأنه يهيم بها وسعيد معها .

أما الفتاة فلا تتكلم وكأنها تأنس له ، فلقد نزع عنها رداء الحزن ولبست الوردي حررت لسانها وأصبح قلما محررًا ، وعيون بها أحلاما ، غارقة في خيالها

تاركة الكلام لخاطرها .

فؤاد : صورتك وأنت صامته تجعلني أحلم ، ترد "ورود" أحمل أحلامًا عربية
تحب الإستقرار ، وتكره الرماد .

فؤاد : أتركي عنك الأحزان فتدرد ورود أنها تخشى أن تنهض يومًا ولا تجده معها
فيقاطعها بوعده لها بأن يطلب يدها في الأيام القليلة القادمة ، يداعب خصلات
شعرها الذي يهفهف على وجنتيها ويتموج ، لقد لمس قلبها ، خفض زجاج
السيارة لتتبخر الأوهام ، فتظهر خضرة المكان قول لها يوم حبك هو صدفة و
ألطف صدفة ، ومعها تغيرت نظرتة للأشياء ، وهو يعيش كالطير الشادي
خيال وحب وعاطفة ، يسعى إلى مكانها ، من يراني سيلمني .. لكن ماذا يفعل
العاشق ؟ نزل الظلام وإختفت أشعة الشمس وبان النجم ، يصغي إليها وما
تفكر فيه ، مد يده إليها ووزعها على جسدها حتى أصاب مكانها ، فبدت
كالميتة ن تحسس لحمه صدرها ، حتى مضى في غير وعي ، إحتضنت شفتاه
شفتيها وقبلها ، وتحسس أنفاسها وهي تصعد وتنزل كما زبد البحر ، إرتجفت
وتشددت وتصلبت وما أعاقه شيء عنها وعن البحث والتعمق بها ، وتعود
أدراجها إلى صورتها بعدما ذابت به وإنقطعت في خلوة معه لمدة دقائق .
وبصوت مبحوح كلهم يريدون حرمانني منك لكنهم ليتهم يسمعون كلامك
فسيعذرونني ، يفتن فؤاد من ملمس الحنو والسباحة في السحاب ويرد عليها
أن موعد قرانهما قريب ، وهذا وعد وأقوى وعد .

يطوي الليل شطره الأول ، ويأوي كل حي إلى وكره ، وينسحب فؤاد بخطى
مثاقلة مترنحة إلى بيته ، ويجلس بالصالة يأخذ بين يديه أوراقا يتصفحها ، تحضر
العلجة ومعها الشاي المفضل لأخيها في مثل هذا الوقت .

يرفع فؤاد عيونه عن الأوراق ويخبرها أنه يريد أن يفتح معها موضوعًا ، وقبل أن يسمع ردها يرن هاتفه وقد إقترب منتصف الليل ، تسمي العلجة بالله وهي تقول هاتفك يخيفني يرد فؤاد من أنت ؟ فيرد المتكلم أنه يتكلم معه بإسم الرئيس يستغرب فؤاد ويرد : لماذا لم يكلمني "رؤوم" بنفسه؟ ، يستمع إلى الرد ويواصل كنت معه اليوم ولم يظهر أية رغبة ، حاضر ، حاضر ..أنا قادم ؟

تتبع أخته تصرفاته ، ماذا هل تخرج في هذا الوقت ؟ ، لكن فؤاد يبدوا مشلول الفكر يستغفر وهو مستغرب ومثنت ، كما لو شيئاً جديداً خرَّ عليه من السماء تنصت الأخت وهي ترقب صمته وإفتراء ثغره ما هيأها لدور آخر وفتح عليها الشكوك وشوكة ، يفتش في جيوبه يبحث في وثائقه يريدني بالمكتب الآن ؟

لكن العلجة تعارض خروجه وتطلب منه البقاء حتى الصباح ، يحمل فؤاد حقيبتة تشده أخته من ذراعه ، كم مرة هاتفك شخص في مثل هذا الزمان لكنني لم أكن أمرر لك المكالمة ينظر إليها فؤاد وكأنه بفصول مسرحية بدأت ، دقائق تشابكت فيها الأفكار وترابطت الألسنة بين ممانعة ورفض وقبول ، ترد العلجة لا زلت ملك نفسك ، وبين جدال وأخذ وعطاء تدخل باسم بأرجح رأي بين مساند وتخفيف للأمر ، وتمت السيطرة على الأفكار وعرقلة سيرها لن يرحل فؤاد بالليل ، إقتنع بالرأي وقرأ الأحداث ، والخفي يسير أخف من دبيب النمل الأحمر في التراب الجاف ، إذ لا يجب الخوف من الناس بل من رب الناس وفطنت لمكانه وضرورة مراقبة تصرفات غيره .

الواقع مسرح يُظهر الخطورة والرضى ، مسالكة وعرة ، لا تزال العلجة تجلس إلى أخيها ، نحن نستغفر مما لا نعلم لكن لا نجهل إذا كنا ندرك ، فلا تنسى قوة موقوفك أو أنك ذو مكانة وشأن ، توجه إليك السبابة كل حين وحتى ممن تجهلهم

لا تستخف بالأمر حملته الأخت محملا واضحا وأذاقته ما يحمله الصدر الضيق
مبحث الغضب الذي لا يورث إلا العداوة وإنبات أصول الحقد ، فهناك من يريد
كسر الكثير من الحريات وتعجيز المركب العلمي ، والعربي غريب الأطوار
مباغت حتى لا مغفرة ولا دعاء يجيب نذاك .

مع تغريدة الطير الأول في السماء الصيفية الصافية يصل فؤاد فيلته وما إن يراه
الحارس حتى يهرول من مكانه يفتح فتدخل السيارة ينزل ويعلو الدرج بسرعة
ويدخل غرفته يتبعه الحارس : سيدي هل أحضر لك قهوة ؟ يرفع الرجل رأسه
من بين كفيه وهو يسند مرفقيه إلى المكتب ربما لم يسمع ، لا شكرا .

طلب منه الجلوس فجلس ، يسأله هل حضر أحد إلى هنا ؟ يرد الحارس مثل من؟
فيرد أيُّ واحدٍ ، فيرد الفراش والمنظفات ، ثم وهو يتذكر هناك من حضر

تشنجت عضلات السيد وثنى جبينه ألف تثنية فيرد الحارس كان ذلك منذ يومين
سألني وإنصرف دون دخول ، تسأله عيون فؤاد من ؟ يرد رجل طويل القامة
ممتلأ الجسم ، أبيض البشرة ، يمسح على رأسه بكفيه ووجهه حتى ذقنه ، ويطلب
منه بالإنصراف ، ينفجر ما بداخل فؤاد من كبت ، يقَلب ويغربل في أفكاره
يأخذ الرقم من هاتفه ويهاتف زوجته ، ألو سأبعث لك ورقة الطلاق في ساعات .

ويرفع ثقله عظم كيته وبلور ما به من ضرر ، يخرج وهو يوصي الحارس
بإبلاغه بالحاصل ، لقد بدت الكثير من الأشياء مُلثمة وكشف ذهنية مهدت لعرقلة
دربه .

نتوالى الأيام الصيفية حارة قادت نيران التجارب وعمليات تأسيسية ومنهجية
أدرك فؤاد ما هو فيه وعظم أعماله فهناك من سبقوه ومنحوا الإنسان عطور
العلم ورفعوا أمهم ، وأنقذوا البشرية من آلام موجعة ، وحققوا المستحيل ، فلا

يمكنه بيع قلبه فصفح وإرضاء للغير لا شك في ذلك ، بدأ عليه الرضى ومالت نفسه للراحة ، بدأ بتجزأة ساعات عمله وإتجاه بحوثه وإهتم للمحيطين به حتى يكون درعا يحمي نفسه ، وبين ثقة وبعد وإختلاف سار على مضض لدرء الخطر وخلع عنه الوسواس ، وبسرعة تقدم أكثر فأكثر ، وإنتهى من تجربة وبدأ أخرى ولاحت بوادر أخرى أمدت إلى إستقراره .

وعلاقة عاطفية عربية تصلبت وخلت من الشئب ، ظهر هذا المساء أمام البقالة التي تعمل به حوية، فقامت قائمتها وتعثرت بعبارات الخجل فكبت عليه معذرة لعمي عيسى الذي بارك لها لقد قرّر فؤاد خطبتها وسار الخبر على السن الناس وإلتقطت الطيور ، سيفتح الموضوع مع أخته بجدية فلقد أمست علاقتهما من المسلمات التي لم يقاومها ولم يقف حيالها .

يدخل فؤاد بيته في ساعت الليل الأولى ، الجميع حول التلفزة يجلس بعدما حيا الجميع ، يشد يدا بيد ويتلفت لأخته :

أريد التحدث إليك ؟ فترد بالإيجاب ، يذكرها بطلاق نيلي ، وأنه منحها الوقت لكي تكتفي لكنه إكتفى بقراره ،وتسأله عن البنات فيرد أنهما حرتان في إختيارهما وأن لا إشكال في تعامله معهما ، أما الأمر الذي جاء لأجله فهو أنه وجد من ستسعه وتعوضه ، تبتسم الأخت وتفهم مقصده فترد من ذي صاحبة الحظ الأرجواني من ملكتك ؟ يتفادى مربض أخته ، ويحاول قهر المفاجئة ويجاريها في وصف العروس في خفة وصفاء السريرة :

هي بنت في ربيع العمر ، زهرة عربية أينعت وأردت قطفها وضمنت له طول العمر الجميل ، ويبقى السؤال معلق :

من هي ؟ يرد "ورود" إبنت هشام عز الدين.

تخرس الأخت ويتعقد لسانها ، وتنط أفكارها هنا وهناك ، لكن الرجل أعد للحديث فأخذ مسؤوليته في إنارة الأمور وتحجج وقطع المفاجأة فهي البراءة والوجه الناعم تفردت بنواعم الحديث وبرقة طبع وتفتح على الحياة ، ورغم فرق السن فهي لا تهتم .

تشددت العلجة في رأيها وكشفت مخاوفها ، بسطت ما تريد وأن ما يرده هو من الخيال كلام وآخر أرادت به المرأة توضيح الأمر كما تراه ، أما باسم فلم يتكلم فقرار فؤاد بدون تجارب فلا مجال لذهنيات وعقول تلعب أدوار البطولة منذ أزمنة غابرة ، ولا مجال لحكاوي الخيال ، فخلافاً لإنقاذه للبشرية من الأمراض هاهو يحمي نفسه من تسرب للأفكار الهدامة .

وبعد التشريح سار الكلام للفرج وتنفرج الزاوية القائمة وتفرج الأمر سدت الثغرة عن حجج المرأة وتمنت له بجوامع المسرة وموفور الحياة .
خبر إقتران الباحث "بورود" أسعد الفقراء ، خبر دخل الكوخ المظلم بحي التعاسة وأفرح الأم فتيحة وأبهج الأولاد الستة ، ريح هبَّ على الحياة القاحلة وماء أنعش الموات وشدى الطير ورفرف وفتحت دروب مسدودة ، رقص الصبية وعاد الأمل يجثو على الشفاه سمة وجمال .

إحتفل الجميع في محفل سلس مبرقع بالأهازيج ، ولمست الفرحة مخابئ المحرومين من أشعة الضحى وتمزق ثوب الحداد ، وإختفى السواد .
إلتحق فؤاد بمكتبه مبكراً وهاهو مطمئناً لحدائث إنجازاته ، يستغرق في خيال نحتته أفكاره متعمقاً ، وتوسع في تجارب معرفية ، يطرق الباب طرْقاً خفيفاً ويرن هاتفه فيحتج جسده وفكره لكنه يتقدم نحو الباب ن يخرج المفتاح من جيبه ويفتح ، يهمهم مبدياً حركة غريبة هازا رأسه منزلاً شفته اليمنى ويعاود غلق

الباب منصرفاً إلى هاتفه :

من الرئيس ، نعم ...المؤتمر المنعقد باليابان ، نعم نعم ، ويغلق الهاتف ، يستقر و يحمل بعضه ويتجه إلى مكتب المدير .

هاهو الصيف في بدايته ، وبخ في الوجود نفس ساخنة وزغردة الحياة تنعش الريق وترفع الوجد ، وهاهي ورود تتجهز تبحث عن الفساتين والأقمشة و الأحذية الجميلة ظهر مرسمها وظهرت على وجهها النعمة ، صفو وإستقلال أفردت البسمة على شارع التعاسة .

فؤاد واحد من بين الستة الأشراف الذين عادوا إلى الجزائر هم المجد وهاهو يقلدون بأوسمة على علمهم وإنجازاتهم ، و قبل هذا التكريم عليهم تقديم إنجازاتهم .

واليوم حفل خطبة عليا لفؤاد ، توسطت الشمس السماء وإنبسبت أشعتها تنسج دفأ متباعداً ، يظهر في سيارته ، يعبر الطريق متجها إلى فيلته ، يشعر بحرارة غير عادية يزيح زجاج السيارة يتلقى هواء خفيف ، ينظر طريق مقفر وجهة معمرة وفجأة تظهر أمامه سيارة بيضاء ينزل منها أشخاص بسرعة مسلحين ملثمين يحوطون سيارته ويأمرونه بالنزول ، تشتت أفكار الرجل وبان حلمه و تمزقت أفكاره ، يسأل لا من يجيب يخرج أحدهم بالقوة ويفتش آخر السيارة فلا يجد ما يبحث يسحب أحدهم فؤاد إلى السيارة ويضع آخر غطاء على رأسه يعارض فؤاد لكنه يسمع قواص الكلام ، تجري السيارة بسرعة البرق .

تزينت ورود ببيتها وهاهي تنتظر ، وإن عارضت الوالدة كثرة المعازيم فورود فرحت بالجميع ورحبت بهم ببيتها ، وهاهو الوقت يمر وإنطفأت الشمس وأنار القمر الظلام تنتهي السيارة البيضاء إلى غابة بينام في نهاية العاصمة ، وينزل

الجميع ويجذب فؤاد من أيمنه وقد غمَّ بصره ، يؤمر بالسير ، تبعثر الرجل و غرق بالمجهول فجَّ باطن الأرض وأخرجت الصلب ، تسحب الرهينة إلى مكان وتنزع الغمامة عن عيناه حتى يحاول فؤاد فتحهما بصعوبة ينظر الجميع ملثم ويفك قيده ، يأمره أحد ضخم الجثة وطويل بالتقدم ، ويعلو الجميع صخرة علت عن الأرض مكان به الأشجار والتراب وصحراء جافة يؤمر بالوقوف فيقف يتقدم نحوه الرجل الضخم نتفاهم ، ناولني تسلم وإن قلت لا ستنتهي حياتك وهو يمسح على خنجره ، سلّم تسلم ينظر فؤاد فيجد نفسه محاصرا الجميع مصب عليه يقول الرجل ماذا تقول ، يرد فؤاد كأول مرة يتحدث : في ماذا ؟ النتائج ، أعطيني نتائج بحثك ؟

وكما الكبوة ، هم من حكمت عنهم العلجة ، وهم من كانوا يترصدونه ، يرد أنه لم ينتهي بعد ، يرد الرجل كنت نكي والآن أنت غبي ويلكمه فيسقط فؤاد أرضًا يرفعه آخر ، إثبت فلا يزال الكثير منه ؟ ناولني تسلم ، يرد فؤاد ليست معي ، يثبت الخاطف بهم حمقا غاضبا وبقوة وشدة إذا كنت تريد المراوغة وتصليب فكرك ستري ، يرد فؤاد : هذه هي الحقيقة يتوقف الجميع عن الكلام فيصوب الخاطف له لكمة في بطنه ، فيكب على بطنه محتضنا له "أي" ، ويستعجل أحدهم قتله والإنتهاء منه فيكرر فؤاد أن لا نتائج لديه ، يظهر اليأس على الخاطفين ، حتى يعطي أحدهم الإشارة بقتله ، ويضع يده على السلاح فيستبقه فؤاد بلكمة يلقيه أرضًا وآخر لخر فيلقى الأرض ويهرول سالكا طريق الظلام بينما يتعالى المسرعين بعده والرصاص يعلو يتسحب في الظلام الذي ساعد في مداراته ، وأسرع فؤاد ساحقا الخوف و الخاطفين خلفه بسرعة البرق ، يتعدى الصخور وسرعة بسرعة حتى ينتهي من

يتبعه ، ولا شيء خلفه غير الظلام ، يعبر إلى طريق أهل ، والليل في منتصفه
وقد تشنكلت بثيابه أعشاب يابسة وأتربة ، يصلح حاله مؤقتا يرفع فضول
الفضوليين .

.....

في البيت الجميع ينتظر من أفتقد اليوم ، أصيبت العلجة بالقهر وفأرادت الإتصال
بمكتبه لكن باسم منعها فأبي مكتب يبقى مداوما حتى هذا الوقت ، تضرب كفا
بكف ، وإنصرف المعازيم من بيت العروس ، الأمر محير والقلوب مستغربة
لكن باسم يهدئ والدته ، وفجأة يرن هاتفها حتى تجري نحوه وتسلمه لباسم الذي
يرد من الرئيس .. نعم هذا بيت فؤاد ، يستمع ثم يغلق ، تسأله والدته فيرد في
غرابة إنه يسأل عنه وكأنه أفتقد .

تضرب العلجة يديها بفخذيها بشدة ، وتطأطأ على إبنها ، لقد جهلت الموقف
تتطاير فقاعات من بين شفتيها ، لا تذكر تجلس ثم تقف :

كنت أشم رائحة الغدر وكم حذرت من حوله ، يلقاهم كل حين من قريب ومن
بعيد ، تهز رأسها ولسن يجوب التأويلات ويستحسن التضمر ، تلوم هذا وترمي
آخر بأبغض الألقاب ، الخير والشر تمازجا ، تزلزلت الأرض تحت قدميها ، أمّا
باسم فألى جانبها مهتم يبحث عن حل وفجأة يتفطن لقد كان كلام الرئيس واضحا
فؤاد لم يحدث له مكروه فلو حصل لقال لنا الرئيس .

هاهو فؤاد يظهر بالطريق ، درب مقفر بهدوء يسري والليل في ظلمة لا تتريث
غطت المكان ، في أحسن ملابس ، ولكن العياء شلل ممشاه حتى تباطئ سيره .

ينظر ساعة يده الثالثة صباحا والطريق بدأت تظهر به سيارة وإثنين فيسرع
تحت النجوم يريد شارع العتمة ، ها هو بشارع واسع لا يملك نفسه عن ضياعه

الوقت والظرف لا يسمح له بالتوقف ولا يعلم من خلفه ، ساعات قلائل وتعلو الشمس بالمكان ، يستمع لنباح الكلاب وأصوات الصراخ لكن لا يخشى حيوان لأن الكلب لا يعظُّ أذن أخيه الكلب ، يتسلل وهاهو يظهر الفرج وهاهو على عتبة شارع العتمة .

يطرق فيسرع باسم إلى الباب ، لكن العلجة ساهية ، يعانق باسم خاله فتهب العلجة من عمق الأحلام وعلى ضوء الصباح ترى أخيها فتلفه كما لو إستطاعت سوا عدها حمله ، وأخذت تدعو له وتشكر الله لخلاصه فهو القادر على بحور الفزع والجزع .

يتنفس الصبح نسمات باردة ندية ورياحين ، جو دعا لحياة وظرف جديد خفة وطرارة ، ليلة الباحة لامها كل الضيوم ، وعلت الدناءة بنفسها حتى ترد "ورود" على أمها : والله ما عرفت منه إلا الصدق ؟

لكن فتيحة لم تخفي ما ظهر ، حتى إعتزلت أبنائها بمرضها تحت الحائط الترابي وقد تمددت غير مبالية بالهواء الخفيف ، تقابها حوية مجلساً ، اليوم فات وقت العمل ولن تغادر بيتها ، تسألها الأم عن بغيتها في أخذ عطلة مفتوحة لتغلق الكلام خلفها ؟ لكن عليا تهتم بالخروج ثم تعدل عن ذلك ، لقلق بها وخشية من أسطوانة الأحاديث محتشمة متفادية عيون والدتها .

توسعت دائرة الشكوك صباح اليوم ، وعمقت الفجوة الجميع في نقطة واحدة الهدف الكلام في أعراض الناس ، البؤس والحرمان والحماسة هم الضرر لقد خطفت الفتاة من حياتها وهاهي رياح جديدة تهب عليها .

غفى فؤاد على الكنبه وإلى جانبه باسم ، أما العلجة فلم يغيب عن نظرها لحظة ومع النسيج اللؤلؤي الأول لفيض النهار يطير من فؤاد من مكانه يغتسل ويصلي

تسأله أخته عن خروجه ، فيرد أنه سيذهب إلى مركز البحث .
لقد برزت عيونه من هول المفاجأة وفجعت نفسه وتغير لونه ، غضب وفتور
حتى رنَّ هاتفه فيفتحه ..الريس ..ألو سأحضر الآن ؟
تعارض العلجة خروج أخيها بمفرده ولكنه يعترض ، ويخرج في إتجاه المركز
وما إن يصل حتى ينصرف الجميع بينما يعانقه الريس ويدخله مكتبه .
الريس : عليك بالرحيل إلى هولندا ، لكن فؤاد يعترض ، لكن الريس يلح عليه
عدم تضييع الوقت لكن ذلك خطر على حياته ، وأنه البارحة جاوز الموت واليوم
لا يدري ما يخفي له ، فيرد فؤاد : ومباحثي هنا ؟
الريس : لا تهتم كل شيء جاهز الوثائق والمال وجواز السفر حتى الإسم المغاير
الذي تسافر به .
يقف فؤاد مستغربا وهو ينظر الريس : من هم ؟ هل تعرفهم ؟
الريس : وصلتني البارحة مكالمة تقول أنك أختطفت ، يجب أن لا تحب أفكارك
ولنفسك عليك حق أنت هدف لغيرك ؟
يشبك الريس يد بيد وينظر في حذائه وتمضي فترة صمت تعيد للموقف نقاهته
وفؤاد لا يزال يلح على التوضيح ، يرد الريس : لقد قال الدهر كلمته ، كل من
حولك متهم ، من تعرفه ومن لا تعرفه ، لأنك عالم وباحث وهم يخشون العلماء
هم يترصدونك ، أترك لهم المكان وأنقذ نفسك ، لا تضحك لهم لقد وضعت تحت
المجهر ، لقد جهزت لك السفر ، ستتجه إلى مؤتمر اليابان ، ثم ستحمل حتى بلاد
الضباب ، أما نتائج بحوثك فهي في أمان لدى المبحث العلمي كما في الإتفاق هي
سياسة اليد الممدودة ، وأعد أن لا أحد يلمس بحوثك حتى ترى النور وتسجل
باسمك ، كما أضمن لك العودة سالما إلى أولادك بلندن .

يهتف الرئيس إلى بيت فؤاد لتحضر أغراه وتحمل في أمان ، وهاهي العلجة تجمع ملابس الرجل بحقيبة وتستعجل حتى حضر العامل لأخذها .

تجلس ورود تحت الكرمة وقد عُريت من الأوراق وزالت التربة عنها ، تنشد الأمل والحب لماذا يغدر الإنسان وقد منحنا الأمان؟ لماذا تجاسر الكره على الوفاء ، سارت الجرائم بالجسد وترعرع لما وجد التربة ، ولا تزال قلوبنا تنبض بالحب وتبحث عن أرض خضراء بها أزهار ، لماذا يقتل الجمال فينا وتقتل البراءة فينا ؟ لماذا نتكبر على غيرنا ؟ أو ليس الماء ليروي عطش العطشان ، لا يوجد أروع من البساطة فلا يكون هناك نقص لأمر ولا نكفا لشيء نافع .

تمر الأيام متسلسلت وفي صمت رهيب ولا أثر للسيد لا خطوبة ولا شيء منها رجل ذهب ولم يترك خلفه إلا الأحلام والوهم ، نقص جزع له السامع ونسجت الألسن الكلام حتى أمر فؤاد بفتح الموضوع مع حورية .

إصطحبت العلجة مع عائشة وحفيدتها مروة إلى شارع التعاسة وهاهم يجلون إلى ورود ووالدتها التي قضت من الزمان أطوله بالبيت ، يجلس الجميع ، كشف الحقيقة صعب ، والعلجة تحمل الخبر وتوفي بالوعد الذي قطعه على الغائب جاءت اليوم لتبطل بأس العائلة ، في الحقيقة كان كل شيء جاهز وكنا سنأتي في موعدنا للحفل وكم أعجب فؤاد بأخلاقك فكنت نبراس حياته وكم إستبشر بك خيرًا ، وقد ترك لك هذا (عقد من اللؤلؤ) أوصى بتبليغه لك . تحمل "ورود" عقد اللؤلؤ وتقربه من وجهها ، تقف معتدلة وتتجه إلى الخارج تناديها

والعلجة وحتى عائشة لكنها لا تهتم :

يؤخذ من مأمنه الأمن وتسكن وترحل .

بعدما تيقنت من رحيل النسوة تعود إلى البيت حاملة عقد اللؤلؤ تجلس إلى والدتها وإخوتها الذين تجمهروا ما جمعت أسماعهم ، وإستباحت لهم الفتاة كل الأسئلة ، و نكست إلى الحائط مسلمة رأسها ، أما فتيحة فقد إنطوت في ركن مظلم غارقة في هموم وبنفس مقهورة .

ثقلت خطوات الفتاة وإنتهك سرها سكنت كمن إنتهى من الغصن وهوت إلى القعر وظهرت حقيقة عن عدم إنجاز الحر لما وعد .

تجلس على العتبة الترابية تنكش بقصب التراب المبلل ثانية الركبة تقوست من همومها تحصر شعرها بخمار أسود تدلى على المعاتق ، نحيفة القوام وعظام ظاهرة ، سلكت الدموع طرقها على الخدود ، إنحصرت في ثوبها الأسود وإنحنت تحمل قطتها ، وراحت تداعبها ، تحللت مشاعر الفتاة وإندفعت تداعب قطتها وبملاحها كتابة محفورة لم ينمحي أثرها بعد .

.....

تجلس العلجة مع باسم مع المساء تحت الكرمة التي تجري أوراقها بدافع الهواء موضع بارد وبحركة إنخطافية تخلع عنه العلجة سهوه :

أتراه مع عائلته ؟ أتراه لا يزال حيا ؟ ، ولماذا لم يهاتفنا حتى اليوم ؟

ألا يدرك وهو المدرك بما يسببه الظلام وما يحدثه الذهول من دعر ويأس بأرض الإستقرار .

يتتبع باسم الكلام حديث فاض بإنذار بهطول لمغابن ومناذر أعذرت الإندماج في الحياة العادية ، يرد باسم أنه أنس الحياة هناك ، أو إنسحب نحو تيار جديد فلم يقوى على الإتصال بنا أو يريد سد مجرى الكلام خلفه ، ولا أشك أن الجهة الحاوية لأعماله هنا يعرفون ماذا عنده ، لذا فلا تتعبي نفسك ، ترد العلجة بأنهم

مجرمون أرادوا قتله ، يستغرب باسم من فعل الرئيس ، وترد العلجة : لما إحتاجوه تسابقوا عليه ، وما إن أظهر نتائجه أرادوا خطفه وقتله ونزع أغصانه تسلل الهدوء وسبقه السكون وتسلط وتسلل إلى النفوس ، ولكنه هدم خطة الأفكار التي كانت مبيّة به .

تُسفل العلجة كوب الشاي إلى الشاي ، وترتفع بجسدها تنفض الغبن تدخل غرفتها مثقلة .

في يوم آخر تجتمع العلجة لإبنها باسم الذي أخذ جريدة بيده متمعنا ، أما العلجة فالجسد حي والوجه باكي ، وأمر ذو بال ملأ بالها في هدوء باعدت ما بين ساقها مستندة إلى أريكة وإنحصرت بها مبطنة همومها كمن باع جلد الدب . يسألها باسم أن تذهب للنوم ؟ ، لكن العلجة لا تهتم حتى يطرق الباب طرقا خفيفا تنهض لتفتح وما إن ينشق الباب حتى يباغتها ثلاثة أجساد ضخمة يدخلون ويغلق آخرهم خلفه ، ويجري آخر نحو باسم مصوبا نحوه السلاح يتسمر الإثنان وتحيطهم عيون الشر ، ويسير ثالثهم بينهم برخو، تثبت العلجة بين ذراعي الرجل الضخم تحاول العلجة التملص منه لكن الرجل يصوب سلاحه نحوها الجميع ببهو الدار ، يفتش أحدهم البيت ويقول آخر مخاطبا العلجة أين أخوك فؤاد؟، لا تقولي لا تعلمي ؟ ، ويعرج نحو الشاب : وأنت ألا تعلم ؟ ترد العلجة : أقسم أننا لانعلم حتى نحن فاجأتنا ظروف المغادرة .

يرد وهل نحن نبحث عن مذنب في السماء ، يرد آخر أنه لم يجد شيء بالغرف يجب أن تعترفوا حتى تحافظوا على حياتكم ؟

يرد باسم ما تقوله أمي هو الحقيقة نحن مثلكم لا نعلم أي شيء عنه ، منذ أن حمل مبعوث مركز البحث بجلب ثيابه لم نراه ، تبددت شكوك الوافدين وبدت كل

الألفاظ كلفظة واحدة ، إنصرف الثلاث وسقطت العلجة على الأريكة وتبرؤوا من التهم وتفادوا مخالب حادة ، وتفادوا المخاوف وسلوكات الهمج ، وأجساد برزت بروز الصخور ، وأما باسم فلم يصف عن تصبحين على خير وتسلل إلى غرفته هادئ بارد وقد سيطر على أعصابه وغاب عن البصر في لمح البصر

.....

غبن البشر يشيع بالبشر ومع أولى بصات الشمس يعبر الرئيس بسيارته الزرقاء إلى شارع العتمة ويقف على عتبة باب "بكير" ويقرع الجرس فيفتح باسم ويدخله إلى الصالة تلتحق بهما العلجة وبدون أخذ ورد يقول الرئيس : البارحة ألقينا القبض على المجرمين مباشرة من بيتكم ، هؤلاء هم من أرادوا إطفاء نور فؤاد ترد العلجة أن الله ستر وإلا كنا إنتهينا على أيديهم فالحياة ولدت مرة واحدة ، يرد الرئيس لقد أخذنا تدابيرنا كنا خلفهم وكنا نراقب بيتكم منذ زمن ، حتى سقطوا وإنتهوا ، كانت كلماته للقلب وإستقرار لمضطرب حتى طمأنهم وغادر . بعد أيام سقطت الحاجة فتيحة والدة ورود مريضة وصورة لجسد ميت إكتئاب نفسي وإنطواء ونكران للذات ، وصف لها الطبيب دواء مهدئ .

ورود: قال الطبيب سترتاحين حينما تشربين دوائك في وقته ، تجلس إلى جانبها على الكرسي الخشبي وأخذت تنظر في وجه والدتها ، تنظر وجهها الغائب لقد ذاب جسدها وتكاثرت حبات العرق على الجبين ووجه حزين يومها طويل وعسره أطول روايتها على وجهها ودموع رهن الإشارة تنظر ورود إلى إخوتها بساحة البيت .

.....

تجلس العائلة حول التلفاز حالها ككل يوم تحاجي الأفكار وتروض الأعصاب

وقد غاصت بالأفكار تنام إبنت عائشة فتطلب منها العلجة حملها إلى الفراش هنا يرتفع صوت باسم أسكتي دعينا نسمع ماذا هناك ؟ وفجأة يقول :

أنظري من على طاولة الإجتماع تقف عائشة تحمل بنتها وقد علقت عيونها بالشاشة وسكت الجميع العلجة : هذا فؤاد يطلب منها باسم السكوت ، ترد العلجة بأية لغة مكتوب أسفل الصورة يرد باسم أنها جلسة حول آخر الإكتشافات بمركز البحوث الهولندية

العلجة : إذن فؤاد بهولندا ؟

ترد عائشة : هو هناك ، تسأل العلجة عن القناة فيرد باسم هي قناة أمريكية .
تتمنى الأخت التحدث لأخيها لكن هذا مستحيل وتعد وتقول : المهم أنه بخير .
يظهر فؤاد وسط جماعة معدن غني راق ، مستغرقا في الأحاديث ، تقترب عائشة من والدتها بفيض من الحنان وتلامس كتفيها ، تجني من خبرتها ما تعلمته ، لقد نال السيادة بعمله ولقد خدم المصلحة العامة ، تنزلق حبات الدمع من خدود الأم حتى غمرت خدودها .

.....

ببيت هشام الوالدة فتيحة تصارع المرض الحزن عم البيت ، لم يكن الدواء متوفر بالصيدلية بل هو بالخارج وإستشار أهل المشورة على الفتاة حمل والدتها للطبيب بمستشفى فقابلت ذلك بالرفض وغلقت منافذها ، وحتى الدواء لا يوجد له أثر وتواجه وصمود الوالدة وقدرها المتتهد بصعوبة ، توردت خدود الوالدة و إعتصرتا حتى غابت حيويتها ومالت للموت الهادئ ولم يعد التريث يجدي تهادت الحمى من كل فج وفتقت من كل أوب ، وأعدمت الفتوة القلب وجرى به الفتك الطاعون أطال إقامتها بالسرير ، وعرف زائر ما ألت إليه من وضع

كمن عرف مصروفه من ادخل يده بالجيب .

غاصت "ورود" بالعمل ليلا ونهارًا وإشتاقت للنوم حتى إسودت بشرتها وغزت نقاط بنية بشرتها ، واقعة في فحيح أفعى السنين لقد صيدت صحتها ، وفر ماضيها عن حاضرها ففزع عنها الناس فرادى وجماعة وألزمتهما الوحدة وبان سعيها لما تريده صحة والدتها التي سال اللعاب الأصفر من شفيتها ، وبجَّ صوتها وإرتخت ساقها وبين فراغ لجيب وتمرد لمرض قلت كلمات الأم وظهرت الحيرة على وجوه الأولاد ، وظهرت اللإرادة على الأمر ، صعب أن تجد دوائها هنا .

.....

وصل الليل النهار وتوازت النقائض والدوافع ، وضعت الأرجل على الدواسة ووصل العلم دربه بوسع وإستعاب ، بفضل أدمغة حاملة لجهد وسعاة مشروعين ويتمكن العلماء من تتمة موضوع البحث وتورفت البحوث ، فجاءت شمس النهار بنتائجها ، وسحق الزرنيق وأعدم مكانه وهكذا أميط أذى هيج الأعصاب .
هيأت هيئة التحكيم للجائزة العلمية وأخرى في علم الفلك وهكذا كرمت الأعمال خدمة للصالح والمصالح .

تخلت ورود عن وقت السفاسف وسافرت بعيدا في سبيل العيش ، تاركة الغبار الغبار خلفها ، ومع المساء من يوم الجمعة تحمل حقيبة بيدها وترفع عن وجهها خصلات ترامت على جبينها حرة تدفعها تحت وشاح بهت لونه .

تسلك طريقا تخرى فيه حذائها الجلدي عن قاعدته تدخل السوق المغطاة من باب واسع ، تسير مستلة عيونها عن غمدها وجلست على أول بساط وجدته حتى سمعت صوت نسوي يسألها :

هذه أنتِ ؟

تنظرها الفتاة من علو ، تسألها العلجة عن مرض والدتها ، وعلى قيد من حشد
لمارة تنشأ النسوة أسلوباً للحديث ، هذه تتكلم وأخرى تتعجب هذه تلقي خبر و
أخرى تستمع ويتفرقا على وعد بالزيارة والسلوى القريبة .
قواعد لسلوك عند المرأة صعّدت به سلم الإرتقاء في التعامل وإنخرطت في
سلك دعاة السلام وجوه تحت سماء بلا غيوم .
إنزلت صحة المرأة عن سبيلها وإستنفذت وسائلها عن الإحتراس ، ولم يعد
هناك تعويض لها للخروج من مأزقها أو التستر عليها ، ولا للتمثيل في
الأدوار من ورائها ، تسابقت أرجل "ورود" إلى باب الخالة العلجة ، وسجاف
ثوبها يضرب ساقها علّ والدتها تلقى الفرج عن سجنها .
أوصت العلجة أخيها بإرسال الدواء لوالدة ورود ، وألحت عليه بذلك ، فعل صعب
لكن الفتاة سجلت به نقاطا لوالدتها المحتاجة .
عجّل الدواء بعلاج الوالدة وقواها عن ذي قبل ، كما بعث إليها معونة لها و
لعائلتها تسند العائلة .
عاد فؤاد إلى زوجته وبناته وإلى عمله بمخبر البحوث بالوكالة الفضائية الهولندية
وإستقر بها وسار بصراط الفضيلة مقيداً سراج لليل يهديه .
تخطى خطورة عودة النور لأرض الجنوب وسرح بعيداً عن القلوب والدروب
الموجعة له ، لا ظفر ولا إظهار ، إلا سلاح اليد يساند سلاح الفكر ، ليتأتى
الذود عن حياض لوطن ، وركب بحرًا عظم موجه ، يرفع الردم عن الشطط
بآلة الحس العلمي التي يملكها ، وتخطى ركوداً في مسائل بأرض العرب و
ما قد يلقاه من الأيدي الأثمة المُرَجىّ لأزرار التواجد والتقدم مستنزفة لحضارات
بأكملها منتظرة صباحاً لنهار يبدأ ، فالجهالة أجهلت الأم الواحدة ولم يكن لما

حصل إرجاء أكثر .

عاد الرجل من حيث أتى ليوظف علمه وبحوثه في تفجير ما يشعُّ بداخله من مواد خام بمعاهد التجارب الإستكشافية ببلاد المطر والضباب ، وهو اليوم بين كندا ومركز البحوث العلمية بهولندا يعمل ويعيش ، وغلق خلفه بقل طويل الغلق وإنتهى ما كان من الضوء الشاحب البازغ من الظلمات المتركمة ، وتحاشا أهل النفور وما دعو إليه من حسابات الظلمة الداجنة . جذع هبَّ من التراب ليخلع عنها الشوائب ذات المردودية ذات نبغ ومنح وأماط الغموض لمجاهل صعب الخوض فيها وزهد بها العمل ، وما زال لديه شرح متسع زاغ عن طريق العلم .

وأصابت سجودًا لكثير من الجاحدين وسُدَّ مسرب النقص ليسير بالفوز على رائعة العلم والبحث لأكبر الشركات والحكومات ، إنجازات ظهرت هذا الصباح لتولد أجمل الحقائق وتشحن الجهود نحو الهدف .

وإمتهن الإنسان المستحيل القاتل والمحي ليمنح العصير حافظا لسره ممتنها الإنتاج فهياً الأمال لأدوار متلاحقة موطدة تعمق التواجد الغربي بمعارف تدخل علمائنا الموسوعة العالمية .

وهذا إذ تنفق مما تعلمه فتخصب العقم اللاجدوى من حياته تخليفا وإستمراراً لتوصل الليل بالنهار ، وتلبس مطامعنا العلمية ثوبًا فضفاضًا يكون لنا نافخ لينمي سلوكاتنا ومواقفنا .

وتشمس على قطبنا ، لا أن نرضخ لشلشل يمنُّ بها الغرب ونجرَّ جريرة على أنفسنا وأن نجتمع على التنافس لا أن نفرق على التناقض وتدلي الثمرة من الشجر فتدلي بأيدينا من ثابت نرفع ما تدلُّل ، ويشبُّ الصاح على دوابره

مستأصلاً الليل الداج الدابق بعلاقتنا بالعلم ، لا أن نرفع أصواتنا من مواقع
تنفيذية بحتة ونصطاد ذاك وذاك ونعلقه بخيط واهن مستعجل إندثاره ، ولسحب
الليل من النهار والتلويح بإستقالة إعلانات غروب الشمس وفي ذلك مأثرة .
هنا توقفت حكاية عائشة عن خالها فؤاد ، وهو يعيش اليوم بعيداً عن الجزائر
وربما يعود إليها بعلم وزاد أكثر .

